

جورج سالم - الرحيل

جـــورج ســـالـم

الرحيل

قصــص

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق
١٩٧٠

الرحيـــــــل

قصص الكتاب

الصفحة

القطـــــار

مع ان س .. لم يكن يحب السفر او يرغب فيه ، فقد وجد نفسه ذات يوم ، دون أن يدري كيف حدث ذلك ، جالسا في احدى عربات قطار يسير مسرعا مخلفا في الجو سحبا من الدخان الاسود الكثيف .

وحين هدأت نفسه من هول المفاجأة والعجب والدهشة التي بلبلت كيانه واعشت ناظريه فترة طويلة جدا ، راح يستجمع ذهنه ويحدق فيما حوله وينظر في هذه العربة التي كان جالسا على احدى ارائكها الخشبية ويلتفت يمنة ويسرة ليستطلع من معه وما معه . ولقد دفعه دافع الى الضحك من هذا الوضع الغريب الذي وجد نفسه فيه ، كيف جاء الى هذا القطار ومن الذي وضعه

فيه واين كان من قبل ، والى اين ينطلق هذا القطار كالاحمق دون توقف .

وتطلع من زجاج النافذة فراى العالم يجري امامه سريعا سريعا على خط مستقيم واحد لا يميل عنه ولا ينحرف . اما في العربة فقد كان هناك عدد كبير من الناس من شتى الاعمار ومختلف الهيئات ، كان بعض منهم يتحرك وبعض مستغرقا في نوم عميق يغط فيه ، وكان واحد يتأمل النجوم التي بدأت تجنح للافول . وكان هناك ايضا نساء ينمن بجانب اولادهن ، وكانت اكثر من واحدة ترضع طفلا لها وهي مضجعة بجانبه . واقام س .. لحظات طويلة يتأمل ما حوله بفزع وفضول . حتى اذا اشرقت الشمس وتريث القطار قليلا ، واقتحمت اشعة الشمس زجاج النوافذ وتسربت الى الداخل ، استطاع س.. أن يتبين الشخوص والوجوه بمزيد من الدقة وخيل اليه انه يعرف معظم هؤلاء الناس منذ زمن بعيد ، وان ليست هذه هي المرة الاولى التي يراهم فيها ، فقد كان بينهم اصدقاء له وزملاء في عمله ، وكان بينهم الموظفون والعمال والفلاحون وشخصيات كبيرة وصغيرة مشهورة ومغمورة ، وعرف بينهم الغني والفقير والكبير والصغير ورجال الدين والاطباء والمحامين واناسا من شتى الاعمار والمهن ، وتساءل في نفسه كيف انتقل كل هؤلاء النفر الى هذه العربة من القطار وكيف اتسع لهم المكان مع اشيائهم وحوائجهم وامتعتهم .

وازدرد الناس طعام الافطار ــ كان الخبز الذي رآه امام الناس طازجا تتصاعد منه الحرارة ــ ولما انتهوا منه عاد القطار الى سابق مسيرته يغذ السير غذاً ، واندفع الناس في حركة دائبة حثيثة وتفرقوا في كل اتجاه ولكن جدران القطار ظلت تحيط بهم ، ومن عجب انهم كانوا يضطربون ويتنقلون غير آبهين بحركة القطار ،

وظل س .. مقيما في مكانه لا يبرحه يتفكر وينظر ويتأمل ويجيل الطرف حتى برز أمامه شخص اعتقد جازما انه يعرفه ، فقد كان يشبه مفتش الدائرة التي يعمل فيها شبها شديدا الا أنه كان يرتدي ثوب مفتش في قطار . ولم يتح لـ س .. شيء من الوقت يتبين فيه وجوه الشبه تلك ، ويتساءل ما الذي جاء بهذا الشخص الى القطار حتى كان هذا يبتدره بالسؤال :

ـ اراك لا تعمل ؟

وفغر س.. فاه مدهوشا ، كيف يعمل وهو مسافر ؟ وقلب المفتش اوراقا كان يمسك بها فوق حقيبته السوداء وقال له :

ـ انت في اجازة هذا اليوم ، لقد سهوت عن ذلك . أما غدا فستستأنف عملك !

وظل س.. في حيرة من أمره ، لقد بدا ذاهلا كأنه يستيقظ من كابوس مروع ، ورأى المفتش صمته وتطلعه الغريب فقال له :

ـ ما بك ؟ اذا كنت مريضا فعليك أن تستشير الطبيب ، ان عيادته غير بعيدة من هنا .

تمنى س .. لو انه استطاع ان يلقي على المفتش كل ما كان يجول في نفسه من تساؤلات ولكنه لم يزد على ان قال له في شيء من الاضطراب والوجل والدهشة :

ـ ولكن كيف يستطيع الانسان ان يعمل في قطار متحرك ؟

وهز المفتش راسه متعجبا من هذا السؤال :

ـ الامر في منتهى اليسر ، اليس كذلك ؟ لقد مضت عليك سنون عدة تعمل فيها وانت مسافر ففيمَ العجب ؟ أم انك اكتشفت اليوم فقط سير القطار ؟

لم ينبس س.. بحرف ولكنه اكتفى بتحريك راسه حركة لا معنى لها ، وحين راى المفتش لا يزال واقفا امامـه تجرأ على سؤاله :

ــ ولكن اين مقر عملي ؟

ابتسم المفتش ابتسامة عريضة وقال وهو يحك رأسه وقد تأكد ان محدثه هذا مريض محموم :

ــ يا سبحان الله ! في الطابق الثالث من الجهة اليمنى مــن القطار ، الا تتذكر ذلك ؟

وكرر س.. في نفسه ذاهلا « في الطابق الثالث ، من الجهــة اليمنى » . ثم اقترب آخر الأمر من المفتش وقد نفــد صبره ، وشعر انه يكاد يختنق وقال في حدة :

ــ وماذا لو انني امتنعت عن العمل ؟ هل يعقل ان اعمل في قطار يتحرك ؟

ضحك المفتش ضحكا متواصلا وقال :

ــ يبدو انك متعب فعــلا ، لا باس عليك ستستريح قليــلا ويعود اليك نشاطك .

ــ ولكنك لم تجبني عن اسئلتي ؟

ــ وهل هذه اسئلة تحتاج الى جواب ! عجيب ، انك لتعرف ما يحصل لك اذا امتنعت عن العمل اليس كذلك ؟

ــ كــلا .

ــ حسن ، ستعتبر مستقيلا وستبقى بدون طعام . ان من يريد ان يعيش هنا فان عليه ان يعمل .

ـ حتى في قطار متحرك ينطلق كالمجنون ؟

ـ ستعتاد عليه ، القضية قضية عادة لا اكثر .

وصرخ س.. وقد عيل صبره :

ـ ولكن من وضعني هنا ، ومن جاء بي الى هذا القطار ؟
قال المفتش عابسا :

ـ لست انا مسؤولا عن ذلك .

ومضى يتابع تجواله ، مخلفا س .. وحده تدوي في ذهنه هذه الكلمات التي راح يقلبها على جوانبها فلا يكاد يستوعبها .

تمدد س .. على احدى الآرائك ، واطل برأسه خارج النافذة فرأى القطار ما يني يجري منطلقا فوق خطه الحديدي الممتد الى ما لا نهاية له فقال في نفسه : « ان المقام هنا غير مريح » ومرَّ من امامه فتى صغير يحمل عددا كبيرا من الجرائد ينادي عليها بأعلى صوته ، فابتاع منه جريدة :

ـ هل هذه جريدة اليوم ، أم انها جرائد قديمة ؟

قال الفتى بجد :

ـ لقد اخذتها توا من المطبعة .

ثم مضى مسرعا يتنقل من عربة الى عربة ، واقام س .. يطالع الصحيفة بنهم .. وهو يتساءل كيف يحمل القطار معه مطبعة وقال يخاطب نفسه : « لا بد ان القطار كبير جدا ... »

قريب الظهر حدثت في القطار فجاة ضجة كبرى وتناهت صرخات الى س .. الذي كان ينتقل بين العربات يستطلع أمر هذا القطار العجيب ويتعرف الناس الذين تيقن أنه كان يعرفهم أو

يعرف عددا كبيرا منهم على الاقل ، ولم يدر معنى هذه الضجـة المفاجئة ، فالتفت يبحث عن انسان يستفسر منه عن سرها فلم يجد احدا يأبه به أو يلتفت اليه ، كان الناس على عجل من أمرهم يذهبون ويعودون بعض منهم يحمل اشياء بين يديه ، وبعض منهم يغذ السير ، وبعضهم يتحادثون ويتناقشون ، وفي تلك الاثناء أقبل عدد كبير منهم ينظر من النافذة فتريث قسم منهم امامها ، والقى قسم آخر نظرة عابرة وتابع مسيره ، وتناهى اليه من بعيد صوت بكاء وصراخ ، وفي تلك اللحظة نجم أمامه الشخص الذي رآه سهران في فجر هذا اليوم يتطلع الى السماء . كان هذا يسير متباطئـا فابتدره س .. بالسؤال :

ـ ماذا يجري ، وفيم هذه الضجة الكبرى ؟ هل انتهت الرحلة؟

فاجابه الشخص الذي كان سهران يتطلع الى السماء وكان في صوته نبرة العارف العالم :

ـ كلا ، ان هذه الرحلة لا تنتهي أبدا ، الا تعرف ذلك ؟

كان يود س .. لو يتوقف عند هذه الكلمات ليستجلي معناها ، ولكنه كان متشوقا لمعرفة سبب توقف القطار فقال لمحدثه :

ـ اذن ماذا حدث في القطار ؟

ـ لن يطول ذلك اكثر من لحظات قصيرة ريثما يقذفون بالميت .

صرخ س ..

ـ الميت !!

فاجابه ذاك :

ـ نعم الميت ! وفيم العجب ؟ !

فلم يدر س .. ما يقول ، ولكنه مع ذلك لم يكن قد فهم شيئا. شعر محدثه بذلك فقال له :

ـ حين يموت انسان ما ، يضطرب القطار قليلا ريثما تقذف منه الجثة ، والا تفسخت وآذت الناس ، ثم يتابع كل شيء سيره ، هل فهمت الآن ؟

وفي الواقع فما ان كاد محدثه ينهي جملته حتى شعر س .. ومن معه بأن الضجيج قد هدا كأن شيئا لم يكن . وبغتة صفر القطار صفيرا طويلا هادئا . قال س .. :

ـ ما هذا ؟

فضحك الرجل وقال :

ـ لقد ظننتك تعرف هذه الامور ، لقد ولد طفل ما في ركن من اركان العربات .

احس س .. بما يشبه الغصة في حلقه ولكنه لم ينبس بحرف. ومع ذلك فقد آنس الى محدثه وود لو يستبقيه فترة يسأله عما يشغل ذهنه من امور ، وكأن محدثه لمس هذه الرغبة فجلس بالقرب من س .. واشعل لفافة وقدم اخرى له .

سر س.. قليلا واحس بشيء من الطمأنينة بعد ان كان الضيق والخوف والفزع قد سيطرت عليه طوال تلك الساعات واخذت بخناقه .

قال س .. :

ـ الحق انني لا ادري كيف انتهيت الى هذا القطار ولا اعرف ماذا يحدث ههنا ، وان ضيقي لا حدود له .

فقال له محدثه :

ـ هل وفدت منذ زمن قريب الى هذا القطار ؟

قال س .. :

ـ نعم .

ـ خفف عليك قليلا اذن ، فان كل من يفد حديثا الى هذا القطار ، او كل من يشعر به فجأة ، لا بد من ان ينتابه مثل ما انتابك ، ولا سيما اذا كان على شيء من رهافة الحس ، ولكنه لا يلبث ان يأتلف .

فصرخ س .. :

ـ ولكني لا افهم ، انا لا افهم !

ـ لن ينفعك الصراخ في شيء .. فستعترضك بعد اليوم اشياء كثيرة لا تفهمها .

قال س .. وهو يشير بيده الى الناس :

ـ وهؤلاء ؟

هز الرجل الذي كان سهران فجر اليوم راسه وقال :

ـ بعض منهم لا يشعر انه مسافر ، وبعضهم يحب السفر ، وقليل منهم مثلك ، من يتضايق قليلا او كثيرا .

ثم اضاف :

ـ ولكن لا بد للجميع من ان يسافروا في هذا القطار المنطلق ابدا .

قال س .. مكتئبا :

ـ ولكن الى اين ؟

ـ لا ادري .. وهنا المصيبة ، ومن عسى ان يدري ؟ قد يكون الى الابدية ، او الى نهاية الدهر ان كان للدهر نهاية .

تنهد شيخ طاعن في السن كان يجلس بالقرب منهما ، ولم يكن المتحدثان قد اعاراه اي اهتمام وقال كانه يخاطب نفسه :

ـ هذا القطار قد اشابني واكل عمري !

اطفأ الرجل لفافته وهمّ بالنهوض فاستوقفه س .. بسؤال اخير :

ـ وماذا يحدث ان انا قفزت من النافذة ؟

قال الرجل بهدوء :

ـ لا يحدث شيء ، فسـحدث ضجة ضعيفة كما حدث منذ قليل ، وستشير الصحف في زاوية صغيرة من احدى صفحاتها ، صبيحة اليوم التالي ، الى ان شخصا قد انتحر ، وهذا كل ما في الامر .

ومضى الرجل ...

نظر اليه س .. في كثير من الاكبار والتقدير ولكنه لم يزدد الا الما . واقترب من الشيخ يسأله :

ـ هل تعرف هذا الشخص الذي كان جالسا معي ؟

اكتفى الشيخ بان هز راسه نفيا ، وبدا كانه زاهد في الكلام . فاضاف س .. بالحاح :

ـ وهل تعرف ما عمله ؟

تمتم الشيخ بصوت ضعيف واه :

ـ يقولون انه مولع بعد النجوم .

واضاف بعد قليل وهو يلهث مع وقع عجلات القطار

ـ يقولون انه عمل شاق ، فالنجوم لا تحصى ..

حين انتهى اليوم ، احس س .. بالتعب ، وكان يخيل اليه انه لن يستطيع أن ينام على صوت عجلات القطار التي كانت تطرق مسامعه طرقا منتظما متتابعا رتيبا كصوت ساعة كبيرة ، ولكنه كان من الارهاق بحيث استسلم للنوم وقبل ان يغفو فكر في عمله ، وفي الاسرة التي كان ينوي ان يكونها وفي المستقبل الذي كان يحلم به ، وفي شيخوخته ، فوجد انه مضطر الى الاذعان لهذا القطار وان عليه ان ينطلق في رحلة القطار هذه التي لا يعرف لها بداية او نهاية ، وخيل اليه انه يسمع صوت ذاك الرجل المولع بتعداد النجوم يخترق الظلمة ليقول له :

ـ مسافر انت ، مسافر كالآلاف المسافرين ، في قطار لا يتوقف!

١٩٦٥

الرحيـــل

لم يدهش س .. حين تلقى البرقية ، فقد كان يعلم حق العلم انها آتية ذات يوم . لهذا شعر بشيء من الضيق والانقباض والالم . وتمنى — وهو يعرف ان امنيته امر مستحيل لا سبيل الى تحقيقه — لو كان بالامكان ارجاء ذلك الى موعد آخر . ومع ان ما جـاء في البرقية كان كلاما موجزا واضحا لا غموض فيه ، فقد اعاد قراءتها غير مرة . من غير ان يعرف لذلك سببا او هدفا . كانت البرقية تقول : « ستعود الينا على اول طائرة تقلع من المطار ، صباح غد » . وكان ذلك اشبه بالاوامر يصدرها قائد لجنده في معركة سريعـة ولعل أكثر ما آلمه انه لم يهيء نفسه لهذه الرحلة المفاجئة البعيدة التهيئة الكافية . لكم تمنى لو أنذر قبل فترة طويلة ، او قصيرة

على الاقل ، بهذه الرحلة بحيث يتدبر شؤونه ويعد اموره . صحيح انهم اعلموه حين جاء الى هذه البلد ان اقامته فيها مؤقتة . وانـه انما جاء اليها لينفذ ما اوكل اليه من اعمال . وانهم سيستدعونه متى انتهى عمله او حين يرون أن عليه ان يعود ولو لم ينجز اعماله ، اذ سيرسلون شخصا آخر يتمها ، فلا علاقة له بذلك البتة . ولقد مرت به فترة ، بعيد وصوله الى هنا ، كان يفكر فيها في تلك البرقية التي حدثوه عنها ، ومع كر الايام اغفلها او تناساها ، وان كـانت تخطر له بين حين وآخر . ولهذا فلم يكن له ان يفاجأ بهذه البرقية ، ولكن ذلك كله لم يمنع عنه شعوره بهذه الغصة التي تحز في حلقه كالسكين .

وتطلع الى ما يحيط به في منزله الصغير فرأى اكداسا مـن الاشياء ، وشعر بالحيرة . ماذا سيفعل بها . وماذا يأخذ منها وماذا يدع ، وخطر له ان يتفحصها ويفرز الاشياء الهامة منها ، ويبيع ما لا يستطيع اخذه معه ، او ما ليس له قيمة . الا انه قدر ان مثل هذا العمل يتطلب وقتا طويلا وجهدا كبيرا ، وليس في وسعه ان يقوم بذلك الآن ، فالنهار قد مضى أكثر من نصفه ، ولم يبق لصباح الغد الا ساعات معدودات ، مهما كان عددها فلا بد أن تنتهي . فقرر أن يترك كل شيء في مكانـه ويمضي دون أن يأبـه بذلك . واقتصر على استخراج ثوب جديد له فارتداه وانطلق مسرعا نحو فتاته لينبئها برحيله ويودعها ، ويقضي معها هذه الساعات الاخيرة التي بقيت له في هذه البلد .

وصح ما توقعه من دهشتها وألمها ، حتى كادت عيناهاتغرورقان بالدموع ، ومع انه كان قد اعلمها منذ زمن بعيد ، بأن اقامته قصيرة الأمد ، مؤقتة ، في هذا البلد فانها تلقت نبأ رحيله وكأنها تسمع

به للمرة الاولى ، أو كانه اول انسان يسافر امامها . وعمد س .. الى التخفيف عنها ، ثم اصطحبها الى مقهى هادىء بعيد ، يقوم على تخوم البلدة ، في منطقة جميلة تعمرها اشجار السرو والصفصاف وقال لها :

ـ سنقضي معا هذه الساعات الاخيرة من هذا اليوم ، حتى آخر ساعاته .

ولم تجبه ، بل ضغطت على ذراعه ، كأنها تخاف ان يفلت منها ، ولم تتفوه طوال الطريق بكلمة . كانت المفاجأة قد اذهلتها ، وكان الالم يرتسم على وجهها بخطوط عميقة حادة .

لم يكن في المقهى رواد كثيرون ، ان هم الا عدد من الاشخاص انتشروا ، في بعض ارجائه . ولبثا صامتين مدة لا يعرف س .. كم طالت . كان يبدو كل منهما مستغرقا في تأملاته الخاصة . ولكنهما كانا ، في الواقع يحومان في حلبة واحدة : هذا السفر السريع المؤلم المفجع . رفعت الفتاة راسها وقالت ، وهي تعرف سلفا ان لا فائدة من قولها ، ومع ذلك كان كل شيء ملتهب حار يحدوها على ان تقول له :

ـ اما من سبيل الى الغاء السفر او ارجائه ؟

لم تنتظر الجواب وحاولت التجلد كيلا تفضحها دموعها . وقالت في نفسها : « لنرجىء ذلك الى وقت آخر ، حين يختفي بعد ساعات في امواج الفضاء . »

ادرك س .. انها عرفت جوابه ، وانها كانت تعرفه قبل أن تقول ما قالت فالتزم الصمت .

نظر الى الشمس تلملم خيوطها الصفر كانها حاو بسط اشياءه على الارض طول النهار ، وقرر من بعد أن يعود الى منزله

فراح يجمعها لا متباطئا ولا عاجلا . ومرَّ بائع الجرائد الكهل حاملا على ذراعه مجموعة كبيرة منها ، فأومأ اليه س .. ان يقترب وابتاع جريدة دون ان يعرف لماذا ، ودون ان يحدد ايها يريد . وراح يلقي على صفحاتها نظرات مسرعة خاطفة . ثم نظر الى فتاته وابتسم ابتسامة سريعة شاحبة :

ـ ما الذي يحدوني على معرفة اخبار العالم وتطوراته .

فهزّت راسها موافقة :

ـ صحيح .

ثم اضاف :

ـ وكذلك الاخبار المحلية لم تعد تهمني .

وقالت بالحركة نفسها :

ـ صحيح .

ولكنها راته وقد استوقفته احدى الصفحات فاستغرق فيها او هكذا بدا عليه . قالت له وكأنما تكره نفسها على الكلام :

ـ اين انت ؟

فاجابها فيما يشبه البرودة :

ـ في صفحة الاموات .

قالت بجدية صامتة :

ـ انا لم افهمها قط .

فاجابها :

ـ معك حق ، وانا كذلك ، من يدري ...

القى الصحيفة جانبا وراح يتأملها .

كانت تصغي اليه ، اكان يوجه اليها الكلام أم كان يتفكّر بصوت عال : « اشعر ان السنوات التي عملت فيهـا ههنا واشعر ان

السنوات التي عرفتك فيها واحببتك خلالها قصيرة جدا ، مرت كلمح البصر . اما اليوم الذي تم فيه لقاؤنا فاراه بعيدا كأنه موصول ببداية الأبدية .

ثم وجه كلامه اليها قال :

ـ لا اريدك أن تتألمي . حاولي أن تنسي ولسوف تنسين .

قالت باقتضاب :

ـ لا .

فاجابها :

ـ الزمن كفيل بتسوية الجراح .

فسألته :

ـ الن ترسل الي رسائل أو اخبارا ؟

ـ لا ارى حاجة الى ذلك ولا فائدة .

مسحت دمعة صغيرة افلتت منها رغما عنها وقالت :

ـ الن تطمئنني عن وصولك ؟

ـ سأصل ما في ذلك ريب .

فقالت ملتاعة :

ـ ولكن الى اين ؟ الى اين ؟

وشرد لحظة وهو يردد في نفسه « الى اين ؟ » ثم رفع راسه وقال بلهجة حاول أن تكون طبيعية :

ـ الى المكان الذي جئت منه .

ـ لم تحدثني عنه قط ، اتراك تتذكره في وضوح ؟

ـ كلا .

وعاد كل منهما فلاذ بصمته وبشريط من الماضي فيه آمال

شتى ، وشيء من المباهج والافراح وبعض الآلام والاحزان ، اقبل النادل يسألهما ماذا يشربان . لم يسألها هذه المرة رأيها ، وقال للنادل فورا :

ـ فنجانين قهوة ، سكر قليل .

عادا الى نفسيهما فور اختفائه . وكأن طرأ خلل خفيف على مسيرة الذكرى ثم لم تلبث ان تابعت مسيرتها . همست بصوت ضنين خافت تخاف أن يسمعه أحد ، ولم يكن بالقرب منهما انسان:

ـ ومع ذلك فقد كانت الايام جميلة . وكانت علاقتنا جميلة .

فتمتم كانه يصلي :

ـ جميلة جدا بحلوها ومرها .

ـ لم يكن فيها شيء مر .

ـ بل قولي لقد نسينا كل مرارتها .

فسارعت الى القول :

ـ من المؤسف ان تتوقف .

ـ من المؤسف جدا .

ووجد نفسه مكرها ان يلقي عليها هذا السؤال :

ـ اتعرفين لماذا كانت جميلة ؟

ـ اعتقد انني اعرف ، ومع ذلك فقل رأيك .

قال لها ببساطة :

ـ لانها كانت صادقة خالية من الزيف والخداع .

فايدته بحركة من راسها .

تناهت اليهما اصوات سيارات قادمة من بعيد ، فالتفتا عن غير قصد .

ـ ماذا هناك :

ــ لا ادري . ارى موكبا من السيارات .

وفي الواقع فقد كان هناك رتل كبير من السيارات يتقدم صيمما الجبل . ولم يلبثا ان استبانا جنازة بدلالة باقات الازهار التي لاحت لهما اول الامر ، ثم سيارة الموتى وبعدها موكب المشيعين . قالت الفتاة :

ــ هل نسيت ان المقبرة قريبة من هذا المقهى ؟

قال لها في حسرة :

ــ لقد نسيت اشياء كثيرة .

ثم اضاف بشيء من الاعتذار :

ــ ما كان ينبغي أن أنسى ذلك ، ولم يكن ينبغي أن أنسى سفري قط .

وحلَّ بينهما جدار من الصمت لم يكن اي منهما يجرؤ على اقتحامه . شعر بالعطش فطلب من النادل ماء ، ثم عاد فطلب الماء ايضا .

قال لها وهو يهم بالوقوف :

ــ لا بد ان نذهب .

فلم تجبه ، بل نظرت الى ساعة معصمها ، كانت هدية منه . قالت له :

ــ سيكون الزمان بعد رحيلك طويلا ، طويلا .

ــ ليتني اعرف كيف سيكون الزمان هناك ؟

في طريق العودة قال لها :

ــ تركت الغرفة كما هي لم المس اشياءها . خذي المفتاح ومري متى شئت ، فقد يكون فيها أشياء لك او اشياء تحتاجين اليها .

قالت :

ــ لست بحاجة الى شيء .

فقال في الحاح :

ــ تركت في الدرج المقفول كل ما استطعت ان اجمع من مال فخذيه .

قالت :

ــ سأدبر امري كما دبرته كل حين .

ــ هناك ايضا بعض الصور ، كثير من الصور .

ــ هذه قد آخذها ، بل سآخذها حتما .

* * *

استطاع بعد لاي ان يخلص ذاته من بين ذراعيها وهي متمسكة به بعنف ، كثمرة ملتفة بقوة على نواتها وسلك طريق المطار شاحب الوجه ، وخلع عليه نور الفجر الضعيف وشاحا رماديا ، احاط به ، فبدا كأنه يجابه خيوط النور . وكان آخر ما سمعه منها قولها :

ــ اما من امل ولو ضئيلا بعودتك . أو بلقاء ؟

قال مبتسما :

ــ انت تعرفين كل شيء ، ولعل الامور لم تبد واضحة وضوحها الآن . لا ...

شعرت ان كلمة لا ... التي لفظها قلبه قد انطلقت من فمه وراحت تتسع وتتسع حتى شملت كل الفضاء الذي يحيط بها ثم راحت تصلب رويدا رويدا حتى استحالت ارضا صلبة انطلقت منها الطائرة التي اقلع فيها وحيدا وبسطت جناحيها في المدى البعيد . وظلت ترقب الطائرة بكل حواسها حتى صغرت وصغرت وغدت اشبه شيء بحبة رمل صغيرة تلتمع في ضوء خيوط الشمس التي اخذت تملأ الكون . ثم تلاشت وتلاشى معها س ..

١٩٦٧

منزل في ظاهر البلدة

لاحظ س .. بينما هو جالس في المقهى انه يبتسم لرفقائه ويحادثهم ، ولاحظ في الوقت نفسه ، ولأول مرة ، انه انما يفعل ذلك كمن يقوم بتمثيل دور مسرحي اعده الاعداد الكافي الطويل .
ولما غادر رفقاؤه المقهى في الوقت الذي اعتادوا ان ينصرفوا فيه لبث هو وحده فترة ، لا يدري كم امتدت ، ولكنه اذ عاد من شروده وجد ان نادل المقهى يمسح المناضد الفارغة ويرصف الكراسي ويكنس غبار الارض ، اذ ذاك نظر حوله فلم يجد أحدا في المقهى ، وعرف انه قد اطال الجلوس ، غير شاعر بما يجري حوله ، وان لا بد له من الذهاب فقام يرتدي معطفه وانطلق وحيدا في شوارع مقفرة في البلدة الواسعة المترامية الارجاء .

وابتسم س .. في سره لهذه البادرة الغريبة التي تصدر منه لاول مرة في حياته ، ماذا عسى ان تظن به زوجه ، وكيف يفسر هذا التأخر عن العودة ، وهو الذي قضى هذا الشطر من حياته يعيش في انتظام كانتظام ساعة دقيقة ، يستيقظ في الصباح الباكر ليمضي الى عمله في الوقت المحدد لا يتأخر ابدا ، ويعود بعد الظهر فيبلغ البيت في الساعة الثانية والربع تماما ليستمع الى موجز الانباء قبل ان يتناول طعام الغداء ، ويخرج في نزهته المسائية عصر كل يوم ليعود قبيل الثامنة مساء فيسهر في المنزل او يستقبل بعض زواره او يخرج مع زوجه لزيارة بعض الاصدقاء او الاقرباء ، أو حضور احد الافلام السينمائية .

وسار في الطريق التي اعتاد ان يسير فيها كل ليلة ، ولقد جرت العادة ان يخرج س .. مع رفقائه فيسيروا معا في الطريق نفسها مسافة ثم يمضي كل منهم فيسلك الشارع الذي يفضي به الى منزله .

واذ خطا س .. بضع خطوات خيل اليه انه ربما اخطأ الطريق ذلك بانه لم ير المخازن والدكاكين التي يراها ويتوقف امامها ثوان قليلة كل مساء ، ولكنه لم يلبث ان ادرك انه يسير في الطريق الصحيحة ، وان تلك المخازن قد اغلقت منذ حين ، ولذلك لم يتعرفها للوهلة الاولى ، واذا كان قد وجد ان الطريق غريب عنه فما ذاك الا بسبب انطفاء انوار المخازن التي الف ان يراها دائما . ولم يحدث قط ان سار في هذه الطريق وهي مظلمة ، ولذلك كله خيل اليه انه انما يسير فيها للمرة الاولى ، فتابع سيره في هدوء وتمهل .

ليس يدري لماذا كان يشعر في اعماقه كأنه يسير في نومه ، اكان نعسان ، أم أن في الجو شيئا جديدا لا عهد له به ، واخرج مفتاح المنزل من جيبه ، وكان من عادته ان يخرج المفتاح قبل أن

يصل الى المنزل ، وهو على بعد امتار عديدة منه ، ويظل ممسكا به حتى يرقى سلم البناية فاذا وصل الى الباب اولج المفتاح في القفل وفتحه بسرعة .

الا انه لم يصل ، تلك الليلة ، الى المنزل . وظل ممسكا بالمفتاح وقدر انه ربما اجتاز مدخل البناية شاردا ، فعاد ادراجه يبحث ، ولكنه لم يجد البناية ، وحار في الأمر ، هل هناك خطأ ؟ وفرك عينيه جيدا ، الا انه لم ير اية بناية مالوفة ، عند ذلك كف عن ان يسير الهوينى ، وراح يحث خطاه باحثا ، فسار في كل الدروب وكان يعود ادراجه في بعض الاحيان او يستدير حول كتلة من المباني ، ليجد نفسه في المكان الذي انطلق منه ، وظل يهيم من شارع الى شارع ويحوم حول المباني ، ويهوم من رصيف الى رصيف ، لقد ضل باب بنايته ولم يستطع ان يعثر عليه ، رغم ان نورا ضئيلا كان ينير الشوارع كلها . اين منزله ؟ أتراه قد ضاع ؟ وهل يضيع رجل في مثل عمره ؟ انه يحوم في المنطقة التي يسكن فيها ، لا شك في ذلك . وحاول ان يلج عددا من المباني ، ولكنه سرعان ما كان يتعرف انها ليست البناية التي فيها يقيم ، عجبا ، اين منزله ؟ واين زوجه وامتعته وسريره ؟ اين اضحت كلها ؟ وكيف غدا انسانا بدون منزل بمثل هذه السرعة ؟ . وخطر له ان يسأل الناس عن منزله ، ولكن من عسى أن يسأل ؟ ان الشوارع لمقفرة ، وها هوذا الحارس ينظر اليه من بعيد نظرة فيها كثير من الريبة والحذر . هل رأى فيه سحنة لص ؟ وقرر أن يتابع السير واغذ الخطا ، فاذا به يبصر اضواء من بعيد ، فقصدها . كانت تلك اضواء الشارع الكبير حيث ساحة المدينة والفنادق الكبيرة والسيارات الذاهبة الآيبة .

كان النعاس قد اثقل جفنيه وراحت برودة الليل تتسرب الى جسمه ، فقصد احد الفنادق ، وهو الذي لم ينم في اي من فنادق

المدينة قط . كان كل من في الفندق نائما غير شاب صغير اخذ منه هويته ، ودله على غرفة فيها سريران ، وقد شغل احدهما رجل ما ، ولم يكن في الفندق كله غرفة فارغة ، فمضى الى السرير الذي دله عليه الشاب واغلق هذا الباب واطفأ النور من الخارج ، فخلع س .. سترته وحذاءه وتمدد في الفراش بثيابه ، ولكنه لم يذق النوم الا غرارا . كانت هناك ضجة مستمرة لا يعرف من اين تأتي ؛ وكان يتناهى اليه بين حين وآخر صوت فتح الابواب واغلاقها ووقع خطا على الدرج وفي الممرات ، واصوات السيارات من الشارع ، وراح يرقب بين الفينة والفينة هذا الرجل النائم في السرير المجاور فيراه يتقلب في فراشه وهو يغط في نومه ويزفر زفرات طويلـة عميقة . ما الذي قاده الى النوم مع هذا الغريب ؟ وتألم اذ شعر انه هو غريب ، وحن الى منزله وسريره ، ولكنه كان على ما يشبه الثقة بأن منزله قد اختفى ، ولم يعد له من مكان يأوي اليه ، وعاد يتساءل عن هذا الغريب . أتراه يعرفه ؟ اهو انسان مثله اضاع منزله ؟ اهو من معارفه ام زميل له في العمل ؟ اهي زوجه وقـد لجأت مثله الى هذا الفندق بعد ان اضاعت منزلها في عودتها اليه هذه الليلة ؟؟ وقبل ان يستيقظ الغريب ويتعرفه س .. كـان هذا قد غسل وجهه وارتدى سترته ومضى الى عمله قبل ان يحين موعد الدوام .

وفي الدائرة التي يعمل فيها ، همَّ غير مرة ان يروي لزملائـه ما حدث له في الليلة الفائتة ولكنه خشي الا يصدقوه ، او يظنوا انه انما يروي لهم حلما ، ولم يكن يستطيع ان يقنعهم بما حصل له ، فآثر الصمت ، وشعر زملاؤه انه يتفرس فيهم ويطيل النظر اليهم ، فادهشهم تصرفه هذا ، عم كان يبحث ؟ لقد كان يبحث بينهم عن ذلك الغريب الذي قضى معه الليلة بكاملها في تلك الغرفة اللعينة، ولما انتهى الدوام وفرغ س .. من عمله هرول الى منزله . كـان

ذاك في وضح النهار ولم يكن ثمة مجال للبحث عن المنزل ، فقدر س .. انه سيلاقيه بسرعة ، وسيتناول طعام الغداء مع زوجه على عادته ، ولكنه حتى في وضح النهار لم يعثر على منزله ايضا . لقد راى بعض المنازل التي يعرفها ، وبعض الوجوه التي كان يصادفها في طريقه احيانا ولكنه لم يعثر على منزله بالتحقيق ، وبعد ان تيقن من ذلك ولم يبق مجال للشك أو البحث قصد احد المطاعم ليتناول غداءه فيه . ومن هناك مضى الى المقهى ينتظر مقدم رفقائه .

وتوافد الرفقاء واحدا تلو آخر ، وكان س.. يحادثهم ويبتسم لهم وهو يشعر بأنه يكرر المسرحية التي ادرك بالامس انه قد اتقن القيام بها . ولماقرر الرفقاء ان ينصرفوا مضى س .. معهم ولكنه لم يجد حاجة الى اعادة البحث عن منزله بل رأى ان يذهب الى الفندق توا ويحجز فيه غرفة خاصة له ، ولما كانت الغرف التي تحتوي سريرا واحدا محجوزة فقد اضطر الى ان يحجز غرفة ذات سريرين لكيلا يضطر الى ان ينام مع غريب لا يعرفه .

وقرر س .. آخر الامر ان يستأجر بيتا ينام فيه ، ولم يكلفه هذا كبير عناء ، فقد ارشده الدلال الى عدد من البيوت فاختار واحدا منها مؤثثا تأثيثا متواضعا واستأجره ولكنه بعد ايام معدودات عاد فاضاع منزله ، ومفتاحه ، فراح يهيم على وجهه ، وعثر له الدلال على منزل آخر بعد شيء من البحث والجهد ، واستمر س.. يتنقل من منزل الى آخر ، ولا يستقر اياما حتى يضيع منزله فيعمد الى استئجار آخر .

* * *

قال له الدلال بعد حين وقد نفد صبره :

ــ اما الآن فسأؤمن لك منزلا لا تفقده و لاتشعر فيه بالغربة او الضياع ابد الدهر ! فتبعه س ..

كان ذلك في يوم عاصف من ايام الخريف ، فمضى س .. مع الدلال وسارا طويلا صامتين . وشعر س .. بعد فترة طويلة من السير ان الدلال قد خرج من المنطقة المأهولة من المدينة وصار الى ظاهر البلدة ، فالتفت نحوه يسأله :

ـ ولكن الى أين ؟

ـ الم اقل لك اننا سنعثر على المنزل الذي لا يضيع ؟ تريث قليلا .

ولما اصبحت المدينة خلفهما ، سارا في درب جبلي صاعد ، ثم انبسطت في آخره سهول ، شاسعة مضيئة ، يلتمع عشبها ويتماوج بتأثير الريح الخفيفة ، وسارا طويلا في هذه السهول فاحس س .. بكثير من الاعياء والتعب ، وود في سره لو ينام ، وكأن الدلال قدر ما يجول في ذهنه فقال له :

ـ تمالك نفسك قليلا ، وستستريح في هذا المنزل الجديد .

وبعد ان قطعا مسافة طويلة مقفرة وقف الدلال قليلا فتوقف س .. بدوره ، وتفحص المكان كله بنظرة سريعة ، ثم قال في منتهى الهدوء :

ـ ها هنا !

فلم يفهم س .. شيئا ، عند ذلك طلب اليه الدلال ان يتمدد على الارض ، ففعل ، وهو في خوف وحيرة ودهشة ، فانحنى عليه وسأله :

ـ هل اعجبك المكان ؟

ورأى نفسه مضطرا الى ان يجيب دون ان يعي ما يقول :

ـ نعم .

وحانت منه التفاتة وهو في وضعه ذاك . فلمح بالقرب منه منازل كثيرة ، منازل صامتة تملأ المدى والافق كأنها غيمات صغيرة بيض ملتصقة بالسماء .

صفق الدلال بيديه . واراد س .. ان يحتج وان ينهض وان يتمرد ولكن الوقت اعجله ، اذ شعر ان قسما من الارض ، هذا القسم ذاته الذي تمدد فوقه يغور في باطن الارض رويدا رويدا ، وان المنازل الصغيرة تقترب منه وتحيط به من كل جانب وتبتسم له ، وفجأة احس سقفا من التراب يهال فوقه بسرعة ..

نفض الدلال يديه .. وتمتم صلاة قصيرة ، وعاد وحده من حيث اتى .

١٩٦٤

في الطريق إلى الصحراء

استيقظ س .. مبكرا على غير عادته ، فنهض من فراشه وخيوط الفجر الاولى لم تكن قد ظهرت بعد ، ثم ارتدى ثياب السفر والقى نظرة على غرفته بعد أن سوّى فراشه ولحافه ومال الى حقائبه الثلاث التي كان قد هيأها مساء البارحة ، فوضع واحدة على ظهره ، وامسك واحدة بكل من يديه ، واطفأ انوار المنزل كلها بعد أن القى نظرة اخيرة على الابواب والنوافذ ، واغلق باب الدار اغلاقا محكما ، وهبط درجات سلم البناية العالية التي يقيم بها .

سار طويلا في شوارع البلدة شبه المقفرة ، اذ كان الناس ما يزالون نياما في تلك الساعة ، وكان يلتقي بين الفينة والفينة ، في

كل شارع بالحارس الليلي ، وكان بعض الحراس إمّا التقوا به يهزون رؤوسهم ويقولون :

ـ مسافر ، لا شك انه مسافر .

ولم يكن س .. ليوليهم اي انتباه ، وظل يغذ السير حتى بلغ مدخل البلدة الشرقي ، فتوقف قليلا يستريح ، ووضع حقائبه على الارض واقتعد حجرة كبيرة وراح ينظر الى الافق ، كانت الشمس قد بدات تشرق ، فراى أن هذا الصباح لا يختلف في شيء عن سائر الاصباح ، وبعد هنيهة نهض وهو يقول في نفسه :

ـ يجب الا اضيع الوقت ، فالمسافة طويلة .

وتابع مسيره ، وقبل ان تغيب البلدة الصغيرة عن نظره ، التفت التفاتة اخيرة فلم توح له البلدة الغافية في أحضان السهل ، بأية عاطفة ، فمضى يجتاز الحقول المحيطة بالبلدة وسار طويلا حتى اختفت البلدة عن بصره نهائيا .

والواقع ان حقائبه الثلاث لم تكن تتسع لكل ما كان يريد أن يأخذه معه ، فراى نفسه مضطرا لان يترك كثيرا من اشيائه في المنزل، واقتصر على ما رآه ضروريا له ، ولا شك ان اختيار الاشياء وجمعها وترتيبها في الحقائب قد استغرق منه وقتا طويلا ، فلقد وضع في احدى الحقائب بعض ثيابه النظيفة ، ومعطفا وثوبا جديدا ، ووضع في الحقيبة الثانية ادوات الحلاقة والزينة ، وبعض الخبز والطعام . كان يحمل هاتين الحقيبتين بيديه ، اما الحقيبة الثالثة التي حملها على ظهره فقد وضع فيها اهم ما يحتاج اليه من كتب كان يحبها ويستعيد قراءتها ؛ كما وضع فيها أيضا أوراقه الخاصة وشهاداته ودفتر مذكراته وكراسات من الورق الابيض قدّر أنه قد يحتاج اليها لتدوين ما يخطر له ، كل هذا بالاضافة الى اضمامة تشتمل على صوره مذ كان صغيرا حتى بلغ هذه السن ، وكان في هـذه

الاضمامة ايضا صور اصدقائه واقاربه ، وقد الصقت فيها على نحو جميل ، ضمن اطر صغيرة ملونة ، والحق انه كان يحرص على هذه الاضمامة حرصا شديدا ففيها اجمل ذكرياته ، وصور احب الناس الى نفسه .

قبيل الظهيرة ، احس س .. بالجوع . فتوقف عن المسير ، وجلس في فيء شجرة كبيرة وسط الحقول التي كان يجتازها ، ثم فتح حقيبته واخرج منها بعض الشطائر واكلها ثم شرب من ساقية كانت تسيل رقراقة المياه ، بالقرب من الاشجار الباسقة . كان يشعر بالتعب وود لو ينام قليلا . كان بحاجة ماسة الى قليل من النوم فقد تقلب كثيرا على فراشه ليلة البارحة قبل ان يوافيه النوم ، ولكنه آثر ان يتابع السير الآن ، على ان ينام في أحد الحقول عند مغيب الشمس وبذلك يكون قد قطع مسافة أكبر ، فليس في نيته أن يسير ليلا . وخطر له أن يترك احدى الحقيبتين ، ولكنه تردد طويلا في ذلك ، لقد راى انه ليس بحاجة الى هذه الحقيبة الكبيرة التي هدت ذراعه ، فما الفائدة من الثياب التي فيها ؟ وهل سيتاح له أن يرتدي هذا المعطف وذاك الثوب الجديد ؟ واقام فترة يحول بين نفسه وهذه الرغبة التي ابدتها في اطراح الحقيبة ، ثم لم يلبث أن اذعن لها فبحسبه هذه الحقيبة التي تحتوي على الطعام وتلك التي تحتوي على الفكر والعلم ... وقال في نفسه :

ـ ان ثوبا واحدا يكفيني ، وليس يحتاج الكائن الحي الى كل هذه الثياب .

وهكذا ترك الحقيبة ، آخر الامر ، في ظل الشجرة حيث كان يجلس ، وقام يتابع رحلته ، واحس ، حقا ، بأنه تحرر من عبء ثقيل ، وراح وقد غدا اخف حملا يطوي الحقول بسرعة أكبر ، وكان ينقل الحقيبة الثانية من يد الى اخرى فلا يشعر بثقل حملها .

حين غابت الشمس ، كان س .. ما يزال يغذ السير . فقرر ان يتوقف كما بيّت من قبل . ولكنه بعد ان تناول قطعة من الخبز كان زاهدا في اتمامها راى من الافضل ان يتابع السير كان ثمة سوطا يلهب ظهره . ومع انه كان في اشد الحاجة الى الراحة الا انّه قام بعد هنيهة يتابع سيره ، كانت يده التي حمل بها الحقيبة وقتا طويلا تؤلمه ، فتمنى لو ترك الحقيبة حيث اقام لكي ياخذها في عودته ، ولكنه فكر ان فيها الطعام وادوات الحلاقة والزينة وضحك في سره.

اية حاجة له الى الطعام والشراب ، فهو يستطيع غدا حين يصل ، ان يستغني عنهما . اجل ، اما ادوات الزينة ؟ وضحك ملء فمه ، كيف لم يفطن الى ذلك ، وفيم تحمل عناء حمل هذه التوافه فلتطل لحيته ما شاءت ان تطول ، اي ضير في هذا ، سيكسبه ذلك هيبة ووقـارا .

وترك الحقيبة الثانية على قارعة الطريق ، قال في نفسه : ان الناس سيعثرون عليها وسيفرحون لهذا الغنم فهم يحبون المغانم ، وكل غنائمهم من هذا القبيل ، اما انا فلم اعد بحاجة اليها البتة ..

كان بدر صغير ينير شعـاب الطريق ، وينعكس على أوراق الاشجار التي تتراقص في ضوئه ، واعجب بهذا المشهد الجميل ، الا انه لم يشأ ان يتوقف طويلا ليتمتع به . كان على عجل مـن الوصول الى الصحراء التي نادته قبل حين فاستجاب لندائهـا . صحيح انها نادته منذ ابعد الازمان . منذ ان وعى نفسه . ولكنه ظل يؤخر الاستجابة لندائها حتى لم يعد يستطيع دفعا لهذا النداء .

اضحى مسيره الآن خفيفا فقد تحررت يداه كلتاهما . وانطلق بنشاط ورشاقة وراح يوسع الخطا . الا ان الحقيبة التي حملها على ظهره كانت تؤلمه بعض الالم ، غير انه كان على هذه الحقيبة حريصا ، فهو يضن بها أن تضيع وتفقد . ففيها اعمق ما جمع من

تجارب ، وفيها شهاداته التي قضى سنوات طويلة كي يحصل عليها . ولكنه وجد ، عند منبلج الصباح ، انها تحني ظهره وتؤلمه . وفكر فيها مليا اية فائدة من هذا العلم كله . وهل يعادل متعة الصحراء التي تنتظره فيها أيام جميلة عذبة ؟ ثم الم يع هذا العلم في صدره ؟.. ذكرياته ؟ انها محفورة في اعماق نفسه . وما كان للقرطاس ان يحتفظ بها كما احتفظ هو بها . واحس بغصة مؤلمة وهو يحل سيور الحقيبة التي شدها بها الى ظهره ؛ ثم وضعها على الارض وهو يعلل نفسه بأن من سيعثر على هذه الحقيبة بما فيها من كتب ثمينة وذكريات حزينة ووثائق هامة سيقدّر صاحبها تقديرا كبيرا ولكنه هز راسه مستنكرا فلم تقع هذه الفكرة من نفسه موقعا حسنا فهو يعلم أن الناس لم يقدروها حق قدرها وهو معهم فما الفائدة من تقديرهم بعد ابتعاد صاحبها وغيابه ثم اية فائدة من تقدير الناس هذا الذي ظل محروما منه . انه لم يجن سعادة ولم يشعر بفرح قط . ولم يتعلم الا شيئا واحدا وهو أن الكل باطل . ومن يدري فربما كان ما يبحث عنه متوفرا في الصحراء التي يقصد ، فليرم بها ، لقد كانت عبئا اكثر منها خيراً وقيداً اكثر منها حرية ، ومضى في طريقه لا يأبه بشيء .

كل ما يشعر به الآن هو الظمأ ، وكان هذا الظمأ يلح عليه الحاحا شديداً . أتراه يعثر على نبع يروي منه ظمأه ولاحت له من بعد ينابيع عديدة فأمّها سريعا ، وعبّ منها ما استطاع جرعات كبيرة عديدة ورأى أن يمسح عرقه الغزير الذي تصبب منه دون أن يشعر به ، فغسل وجهه مراراً وغسل جبهته وراسه ويديه ورجليه فاستشعر شيئا من النشاط ولكنه لاحظ في الوقت نفسه امراً غريبا أكان من فعل هذا النبع السحري ؟ ذلك بانه لم يعد يذكر أي شيء على الاطلاق ولم يعد قادرا على التذكر ، فقد غامت الدنيا في عينيه ، ولم يبق في ذهنه الا شيء واحد ، هو الصحراء .

اما من اين جاء وماذا فعل بالامس وقبل الامس واين كان وكيف قضى ايامه واين اهله وذووه ، ومن هم ؟ فقد غامت هذه الامور كلها في عينيه ولم يعد يرى امامه الا الصحراء التي ينتظرها وتنتظره منذ امد بعيد موغل في البعد .

مضى س .. لا يلوي على شيء كان نداء الصحراء قد بلغ الآن حدا عنيفا قويا فلم يعد قادرا بعد على التوقف ومع انه كان يشعر بحاجة الى كثير من الراحة بيد انه كان على ثقة بأن الراحة آتية لا ريب فيها ، وها هي ذي الصحراء تلوح له من بعيد ورغم انه كان يعلم انه لم يبلغها بعد الا انها بدت له قريبة قريبة حتى لكانها تحيط به . ومع ذلك فقد كان عليه أن يسير ويسير ، ثمة شيء واحد يضايقه وليس يدري كيف السبيل الى الخلاص منه ، كانت ثيابه رغم قلتها وخفة وزنها تنوء عليه ، وقدر س .. انه ان نزع حزامه الجلدي وحذاءه فسيكون اقدر على السير والحركة وعمد فعلا الى حزامه ففكه والى حذائه وجواربه فخلعها والقى بها الى الارض وما ان سار بضع خطوات حتى عاوده الشعور بالضيق حتى لكأن الثياب تكاد تخنقه فراح يخلع سترته وقميصه وبنطاله ورماها غير آسف عليها اذ كادت في الحق تخنقه .

انطلق س .. يركض ، ميمماً قلب الصحراء . بعد أن تخلص من كل اعبائه بخفة الفراش أو النسيم . لقد احس بانه اضحى قادرا على الطيران بعد ان تقطعت حبال متينة لم يكن يراها ولكنها كانت تشده الى الارض شدا قويا متواصلا . واخـذ يجري في ارض منبسطة لا حدود لها والتفت خلفه فلم ير شيئا لقد اختفت كل المعالم التي مر بها كانت رجلاه الحافيتان تطآن ارضا رملية فقال في نفسه :

ـ لقد وصلت الى الصحراء لا شك انني وصلت !

وراح يلاحظ آثار اقدامه على الرمال فأعجبه منظرها ولكنه فوجىء بالرياح تسفع سطح الصحراء فتغطي مواطىء اقدامه وآلمه فعل الرياح وحزَّ في نفسه غياب آثاره فراح يسير متعمدا رؤية آثار قدميه ثم يتوقف حزينا ليرقب اختفاءها ولاح له من بعيد نور ابيض يمتد على مدى الافق ورأى الماء الذي كان ظمآن له فحث خطاه نحوه ، ولكنه لم يستطع ان يبلغه ومضى يبذل محاولة اثر محاولة للوصول اليه . ولكنه في كل مرة كان يبوء بالخيبة وتساءل في نفسه : ما هذا ؟ وقدر انه اذا تابع السير للوصول اليها فسيقضي آلاف السنين دون الوصول الى ذلك وندت عنه تنهدة أشبه شيء بالحشرجة :

ـ يا الهي !

وسيطر عليه الخوف والفزع فتسمر في مكانه يحملق في لا شيء كانت كثبان صغيرة دقيقة من الرمال تنبسط في كل مكان حوله

ومزيج من الخطوط المستقيمة والمتعرجة تملأ ساحة البصر امامه . أخذ العرق يتفصد منه ويسيل بغزارة على الرمال المتعطشة وكان عرقه احمر قانيا كأنه الدم .

ربتت يد مجهولة على كتفه وهتفت به :

ـ لا تفزع .

وسأل دون ان يقصد أحدا بالسؤال :

ـ هل وصلت ؟

فلم يجبه أحد . اذ ذاك وضع يديه امام فمه على هيئة بوق واعاد السؤال بمزيد من القوة حتى بدا كأنه يصرخ :

ـ هل وصلت ؟

فاجابه الصدى بعد هنيهة يكرر ما قاله :

ـ وصلت .

احس باليد الصغيرة تربت على كتفه مرة ثانية وتهمس في أذنه بصوت عذب موسيقي النبرة :

ـ عليك الآن ان تخلع ثيابك .

ـ ولكنني خلعتها .

ـ اخلع الباقي منها .

وتلفت س .. حوله في خجل ، ولكنه لم يجد احدا ينظر اليه .

ـ لا تخجل ، انزع ثيابك وارمها .

وامتثل للامر بسرعة ، ثم تساءل في دهشة :

ـ كيف انا الآن ؟

اجابه صوت خفي انبعث هذه المرة من اعماقه :

ـ كما ولدتك امك .

عادت اليد تربت على كتفه بهدوء :

ـ اخلع ساعتك لماذا تحتفظ بها ؟

ـ ساعرف بها الزمان .

ـ اخلعها ، فلن يكون هناك زمان .

خلع س .. ساعته وطوّح بها بعيدا .

ـ عليك الآن ان تصير حبة رمل .

ففغر فاه مدهوشا وقال :

ـ حبة رمل ؟ وكيف ذلك ؟.

لم يجبه احد على هذا السؤال ، قيل له في لهجة آمرة :

ـ اضطجع على الارض وتمدد بين اخوانك حبات الرمل الكثيرة .

فصرخ يحتج :

ـ حبات الرمل اخواني ؟.

ـ نعم ، نعم ستصير حبة رمل مثلهم .

قال مستغربا :

ـ ولكنني كبير كبير كيف يمكن ان اغدو حبة رمل واحدة صغيرة لا تكاد ترى .

لم يسمع جوابا عن سؤاله فأضاف في شبه اسى :

ـ اهذه هي النهاية اذن ؟

ولمّا لم يُجبه أحد ، امتثل للامر واضجع على الارض وخطر له سؤال أخير :

ـ كم يستغرق ذلك ؟.

همس صوت في اذنه يقول في منتهى الرقة والهدوء :

ـ لن يستغرق ذلك الا بضعة أيام من أيام الرب .

واغفى س ...

١٩٦٦

في السيرك

ذهب س .. ذات مساء الى السيرك .

والحق انه لم يكن مولعا بحضور امثال هذه الحفلات ، بل ان ذهابه الى السينما نفسها كان نادرا . ولكن رفقاءه في المكتب كانوا قد ذهبوا الى السيرك جميعا منذ عدة ايام وعادوا منتشين بما راوا . ولقد الحوا عليه ، وهم ذاهبون ، ان يرافقهم فأبى ، أما في صبيحة اليوم التالي لذهابهم فقد تحدثوا ما طاب لهم أن يتحدثوا عمّا راوا وسمعوا ، حتى خجل س .. من نفسه ، ولم يقتصر الامر على حديث رفقائه وحسب بل كان حيثما ذهب ، يسمع الناس يلهجون بالثناء على هذا السيرك الذي لم يروا له نظيرا قط . لذلك وجد نفسه مسوقا الى ان يذهب مسايرة للجو العام ، وهو على

قناعة في صميمه ، ان جلوسه في المقهى على عادته كل يوم أفضل ، وظل يؤجل الذهاب يوما بعد يوم مداريا تردده مقنعا نفسه بالذهاب مرة وراميا بآراء الناس خلفه مرة اخرى حتى لم يبق للسيرك في بلدته الا يوم واحد ، فعقد عزمه أخيرا ، ومضى بخطا جريئة كأنه يخوض معركة فاصلة .

ولقد سر س .. جدا في السيرك . بل انه لم يتمالك نفسه بعد فترة قصيرة من ان يضحك بملء صوته ، وهو الخجول المنطوي على نفسه ، ولم تمض برهة حتى كان يصفق تصفيقا حادا شأن الجالسين في المدرج ، وقرر اخيرا انه احسن صنعاً بالمجيء ، وانه لم يندم على ما اضاع من وقت في هذا السيرك العظيم .

وحين اوشك البرنامج على الانتهاء وقدمت الفرقة المشهد الاخير ، احس بشيء من الانقباض ، وود لو يدوم البرنامج ويدوم ، وفهم للمرة الاولى ، اقبال الناس على مشاهدة السيرك وتمتعهم به ، وعذر منهم من أمَّ السيرك مرتين أو ثلاثا ، وتحسر انه لم يزره حتى الآن ، اذن لكان كرر المجيء غير مرة ، وشكر في سره نصح الناصحين من رفقائه ، فقد كانوا في نصحه مخلصين ، يبتغون له الخير لا شك .

وإمّا انتهت الحفلة صفق الناس طويلا ، فصفق س .. معهم ، وبداوا يتدافعون نحو الخارج ، الا أن س .. آثر أن يتريث في الخروج فهو يكره أن يدفع الناس من جهة ، ويؤثر أن يتمتع للمرة الاخيرة بمنظر السيرك من جهة اخرى . لذلك بقي في مكانه لحظات ، ريثما يقل الزحام ويصبح الخروج ميسورا ، وكانت تلك عادته حين يكون في مكان مزدحم بالناس .

ليس يدري كيف لمحه مدير السيرك بين ذاك الجمع الغفير ، وراح يؤشر له بعينه ، فخيل اليه للوهلة الاولى انه يقصد غيره بالاشارة فلم يلتفت اليه ولكن المدير كرر الاشارة مرات بعينه أولا ،

ثم راح يؤشر له بيده أن ابقى ، واذا لم يكن س .. على عجل من الذهاب فقد بقي وحين فرغت مدرجات السيرك من الناس واخلي السيرك ممن فيه ، همَّ س .. بالوقوف ، فوجد المدير يقترب منه وهو يبتسم ابتسامة عريضة ، وعجب س .. غاية العجب من أمر المدير وظنَّ أن في الامر خطأ ، ولكنه كان مخطئا في ظنه ، فليس في الامر اي خطأ ، وها هو ذا المدير يقترب منه رويدا رويدا ، ورغب في تلك الثانية ان يستسلم للهرب ، ولكنه شعر أن ذلك غدا أمرا مستحيلا ، فتسمر في مكانه ، وراح يؤنب نفسه ، وما اكثر مايؤنبها، على تباطئه وبقائه في السيرك هذه اللحظات ، وقال في نفسه : كان يجب ان اخرج كما خرج الآخرون ، الامَ سأظل هكذا أتصرف دائما تصرفات شاذة مغايرة ، وتحسر انه لم يأت الى السيرك مع رفقائه يوم جاؤوا معا وخرجوا معا . واعترف في تلك اللحظة أن في سلوكه دائما شيئا خاصا شبه شاذ عن الآخرين ، والا فما معنى هذا التباطؤ والرغبة في عدم الخروج مع الناس والخوف منهم ومن تدافعهم ، أليس هو شبيها بهم ، فلماذا لا يتصرف مثلهم وبدا الألم يحيط به ، ولكن صوت المدير انقذه من ذلك كله حين وجده أمامه يقول له :

ـ مساء الخير يا سيدي .

فاجابه بلهجته المهذبة المعروفة عنه :

ـ طاب مساؤك يا سيد .

وخيل اليه أن المدير سيسأله عن انطباعه عن السيرك أو عن ملاحظاته ، فاستبشر قليلا وقال في نفسه لا شك ان شكلي يوحي بالثقة والاعتبار وغير بعيد أن يعمد المدير الى الاستفادة من آرائي فقد كانت له آراء كثيرة وكان يود الا يضن بها على الناس ، في كثير من الاحيان ، ولكن ما من احد كان يطلب اليه ابداء رأيه ، ولذلك

وبعد خبرة طويلة قبع في مكتبه يؤدي عمله بانتظام وانكمش على نفسه لا يختلط بأحد ولا يعاشر احدا .

صافحه المدير بحرارة وكانه يصافح صديقا له لم يره منذ زمن بعيد ، وهمس في اذنه يقول في ثقة كبيرة :

ـ سنتحدث عن العمل .

ولم ينتظر منه جوابا بل امسك يده واضاف :

ـ هذا المكان غير ملائم للحديث ، هيا بنا الى مكتبي .

وتبعه س .. في شيء من الاذعان والدهشة ولكنه لم ينبس بكلمة ، وحين ضمتهما غرفة المدير الصغيرة خلف السيرك ، جلس س .. يدير لحظه في ارجاء الغرفة ويتأمل الجدران المملوءة برؤوس الحيوانات وخيل اليه ان الحيوانات ترمقه في وله وتبتسم ، فهز راسه وابتسم مجاملة وادبا . ثم لم يلبث أن سخر من نفسه ووبخها على هذا التصرف الطائش ، ولكنه عزى نفسه أن الغرفة خالية ما فيها غير المدير .

استطرد المدير يقول بلهجة جازمة .

ـ ان حدسي لا يخطىء !

فلم يفهم س .. ما يعني محدثه ، ولكنه هز راسه شاكرا بينما كان المدير ما يزال يتابع كلامه :

ـ لقد طفت ارجاء العالم مع مجموعتي هذه وافراد فرقتي ، وان لي خبرة عظيمة بالناس والحيوانات .

فابتسم س .. لدى سماعه هذا الكلام ابتسامة عريضة وهز راسه شاكرا ايضا .

ـ لست ادري كيف ابدأ الموضوع ، فالقضية حرجة شائكة بعض الشيء ...

فقاطعه س .. قال :

ـ كلا ، كلا ، على العكس ، تحدث بحرية وصراحة .

قال المدير :

ـ اعتقد اعتقادا جازما انك بحاجة الى عمل .

وصمت قليلا . فقال س .. في دهشة :

ـ انا ؟ ؟ في حاجة الى عمل ؟

ـ نعم ولم لا ؟ كل انسان بحاجة الى عمل .

قال س .. في نفسه : هذا صحيح ، ان كل انسان بحاجة الى عمل ، اما انا فلي عمل اعيش منه ، صحيح أنه عمل رديء ولكن ..
فهز المدير راسه :

ـ لا ، لا . أعرف ان لك عملا . ولكن على الانسان أن يكون طموحا فلا يرضى قط بعمله ، اليس كذلك ؟

ـ لا شك في صحة ما تقول ، لا شك .

ـ اذن فنحن متفقان ؟

ـ تماما .

ـ ارايت كيف أن حدسي لا يخطىء ؟

ـ ربما كان حدسك لا يخطىء ، ولكني لم افهم الى الآن صميم الموضوع .

ـ تريث قليلا وستفهم كل شيء .

وتريث س .. وراى ان يدخن سيكارة اذ ادرك أن الحديث سيكون طويلا وهاما غير انه ما ان همّ بمد يده الى جيبه حتى كان المدير قد سبقه فقدم له علبة السكائر مع الكبريت .

ـ تفضل ، دخن كما تشاء ، اما انا فلا ادخن الا قليلا .

وشرع يعبث من اللفافة وهو في تطلع وفضول بينما راح يتحدث المدير حديثا مطمئنا هادئا :

ـ ان لي فراسة عجيبة في الناس ، لقد استطعت ان اتعرفك وانت بين آلاف المتفرجين ولم يخطىء حدسي .. فقد وجدتك تنتظر ان آتي اليك واحدثك وقد اتيت فعلا .

وهمّ س .. ان يقاطعه وان يقول له انه مخطىء في كل تقديراته هذه ، وانه انما تريث تجنبا لتدافع الناس وتزاحمهم . ولكن المدير لم يتح له فرصة الكلام بل مضى يقول :

ـ لا ، لا تزعم ان هذا غير صحيح ، انني اعرف الناس والحيوانات حق المعرفة ، والأن ما رايك ؟

فلم يع س .. شيئا من كل ما سمع وقال مستفسرا :

ـ رايي في ماذا ؟

ـ العمل .. يا سبحان الله !

ـ ولكن لي عملا !

ـ اعرف ان لك عملا ، ولكن ما قيمته ، ثم اين الطموح ؟؟

وفكر س .. قليلا في متاعب عمله ومضايقات زملائه وبؤسه وعدم تقدمه وضيق ذات يده .. واثارت فيه كلمة الطموح مشاعر غامضة . اين عفا طموحه ؟ انه ليذكر انه كان يوم دخل الوظيفة منذ

سنوات ، يريد ان يكون شخصا له اهمية ، وان يصبح مسؤولا كبيرا في المديرية وان يتابع دراسته فيصبح صاحب الحل والربط في اعمال المديرية وينتقل تأثيره ونفوذه الى غيرها من المديريات ثم يعم نشاطه فيشمل البلدة كلها . ولكن طموحه ضعف مع الايام ثم هزل وانتهى به الامر الى ان يجف فيصبح كورقة صفراء ميتة في خريف لا ريح فيه . وغدا راضيا قانعا بعمله الكتابي هذا ، يقبع منذ الصباح حتى الظهر فوق طاولة خربة ، قد بهت دهانها . . وجذبه صوت المدير من شروده :

ـ ارايت اننا متفقان ؟ !

فلم يجب بشيء وهز راسه . وقال المدير بصوت جازم واثق :

ـ ستعمل عندنا ، اننا بحاجة الى امثالك !

ـ عندكم ؟

ـ نعم .

ـ في السيرك ؟

ـ نعم ، نعم .

وابتسم س . . قليلا . قال في نفسه : من يدري لعل الحظ قد رضي عني آخر الامر . وفكر في انه يستطيع أن يقوم بعدد لا بأس به من الاعمال ، ففي مقدوره مثلا ان ينشىء الرسائل وان يطبعها على الآلة الكاتبة كما يستطيع ان يقوم بأعمال المحاسبة . وان يقطع التذاكر . وسر انه يتمتع بكل هذه المؤهلات .

قال له المدير :

ـ ان لك مؤهلات كثيرة .

فانفرج فمه عن ابتسامة عريضة منبعثة من أعماق قلبه ، لعله يسمع مثل هذا التقدير للمرة الاولى في حياته . عند ذلك شعر بأن اللحظة الحاسمة قد حانت فحدق جديا في وجه المدير وقال له :

ــ اي عمل تريد أن تعرضه عليَّ ؟

راح المدير ينقر على الطاولة بقلم كان امامه وقال في منتهى الهدوء :

ــ اصغ اليَّ ان عدد الحيوانات ولا سيما القردة يتناقص في السيرك يوما بعد يوم ، ولم نستطع أن نجد لهذا تفسير أو حلا . وقد استنجدنا بالاطباء البيطريين ، وبشتى الاساتذة المختصين ، فلم نوفق في شيء .. لذلك راينا أن نوظف بعض الافراد الممتازين ، لكي يقوموا بادوارها ..

فغر س .. فاه دهشة .

ــ لا تتعجب ، ان معظم القردة التي رايتها منذ فترة ليست سوى اناس عاديين ، يقومون بأداء ادوارهم بكل دقة . ثم يخرجون من السيرك ليستريحوا ويفعلوا ما يشاؤون .. ولقد جرينا على هذا منذ أمد بعيد .

ــ اذن فهؤلاء ...

ــ الست تعرف شيئا يسمى بالاخراج ؟ ؟

ــ ...

ــ لا اكتمك ان الامر صعب ، ولكنه مع الزمن ..

وبدا على س .. انه لم يفهم أيضا ..

ــ لقد وجدنا طريقة مثلى للاحتفاظ بجلود القردة وسائر

الحيوانات ، واستطعنا المحافظة عليها وجعلها وفق جسم الانسان العامل لدينا ، ولكل ثوب منها جرار خفي يفتح فيدخل فيهالشخص ثم يغلق . فلا تستطيع العين ان تتعرف فيه على غير قرد اصيل ..

وشعر س .. بدمه يغلي في شرايينه ، لا شك ان هذا المدير يعرّض به ويحتقره ويطعنه في كرامته الانسانية ، واوشك ان يقف ويضربه وهو الذي لم يضرب احدا قط طوال حياته . ولكنه لم يفعل شيئا سوى أن رفع يده يكفكف بها دمعة ليس يدري كيف طفرت من عينه ، وقال للمدير في انفعال :

ـ ظننت أن هناك عملا آخر ستعرضه عليّ ، اما هذا ..

وجفت الكلمات في حلقه ، فلم يستطع ان يتابع كلامه .

ـ لا عليك يا صديقي ، ان بعضا ممن عرضت عليهم هذا العمل قد تضايقوا اول الامر ، كما تتضايق الآن ، ولكن مع مرور الزمن ..

ـ ولكنني لا اريد ان اعمل هذا العمل .. ظننت أن هناك عملا آخر .

ـ حسن ، ولكن هذا افضل عمل ، وعلى كل فلست اكتمك ان العمل عندنا نوعان : الحيوانات والمهرجون ، ولكي تحقق احلامك وتخرج من قوقعتك وتجسد طموحك وتصبح شخصية ذا اهمية فلا بد لك من ان تختار احد هذين العملين .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ اما أن تصير حيوانا او مهرجا ، فتبلغ بذلك النجاح العظيم ، ولكنني اذكرك ان المهرج عمل اشد صعوبة ، صحيح ان دخله اكبر وقيمته اعظم ، ولكنني ارى ان تبدأ بالعمل الآخر ، ولا بد لي ان اذكرك ان كل الاعمال في الحياة سواء .

ثم استطرد يقول :

ــ قد تستطيع ، اذا ابديت شيئا من البراعة ان تمثل دور عدة حيوانات مفترسة فتلبس كلما اقتضى الامر جلد حيوان ما ، وسيعطيك هذا قيمة كبرى في السيرك .

ــ ولكنني .. ولكنني لا اريد ولا اعرف ان اكون قردا ..

ــ المسالة ليست صعبة كما تتوهم وانني اعدك انك اذا نجحت ففي الامكان نقلك الى زمرة المهرجين .

ــ ولكنني ..

ــ المسالة يسيرة ، يسيرة جدا ، يكفي ان تفعل مثل ما تفعل سائر القرود وستجد القضية في منتهى اليسر .. والجمال . وسيصفق لك الجمهور كثيرا .

اطرق س .. وراح يفكر : اهذه مصيبة المت به ام ان الحظ يبتسم له فعلا !

ــ عفوا ... انني ...

ــ المسالة يسيرة جدا كما قلت لك .. يكفي ان تفعل مثل ما يفعل الآخرون وسترى كيف توفق بسرعة ..

ــ كما يفعل الآخرون ؟ ؟

ــ نعم ، نعم ، ان مصدر البلاء عند الناس رغبتهم في التفرد والقيام بامور وتصرفات خاصة ، فاذا اردت ان تكون شيئا عظيما في السيرك فما عليك الا ان تنسى ذاتك وتصبح كالآخرين من القردة .

وضحك س .. اخيرا ، وهو يهم بالوقوف .. وقال على نحو جازم :

ـ لا بأس بهذه النكات .. اشكرك .. يظهر انك اردت أن تضيف فصلا جديدا الى البرنامج لتدخل في نفسي البهجة .. اني لأشكرك ، واعتقد ان المهزلة هذه كانت موفقة وقد انتهت الآن .

وهمّ بالانصراف ، ولكن سرعان ما بدت الدهشة في انظار المدير الذي قال له :

ـ كلا ، كلا . انك واهم في هذا كله . انني اتكلم جادا ، واعني ما اقول .

ـ اذن فطريقنا مختلف ... الوداع .

ثم هز راسه في اسف وقال وكانه يقصد احدا بالكلام :

ـ انني أريد عملاً ؟ آه ، نعم ، اريد عملا عظيما ، رائعا . اريد ان اعمل في امور هامة ، أريد ان اخدم قضية وأن اناضل واطمح في سبيل رسالة ..

صاح المدير في فرح :

ـ الم اقل لك اننا متفقان ؟ !

ـ متفقـــان ؟

ـ اجل ، اجل . وهل هناك افضل من الرسالة التي نقوم بها .

ـ اية رسالة ؟

ـ اصغ اليّ يا صديقي ، لو انك انتبهت جيدا الى ما اقول لادركت سر هذه الرسالة العظيمة التي لسعى لتحقيقها .

ـ ماذا ؟

ـ اتظن ان هذا الذي يخاطبك انسان مغفل ؟ لقد بلوت الحياة وخبرت البشر فوجدت ان خير ما اصنعه للانسانية هو هذا السيرك .

لا ليتلهى الناس به ، كما قد يتبادر الى الذهن ، بل لكي يشتركوا هم فيه ، وغايتي البعيدة ان يتوسع هذا السيرك يوما بعد يوم ويشمل عددا كبيرا من الناس فيصبح بلدة بأكملها يرتدي فيها الناس جلود الحيوانات المختلفة ويقومون بأداء ادوارهم بالاشتراك مع المهرجين ثم انتقل حين اطمئن على سير العمل الى بلدة اخرى فانشىء فيها سيركا آخر يكبر مع الايام ويتسع وهكذا .. ولسوف ترى أن الناس سيتزاحمون للانتساب الى السيرك في المستقبل ولن يترددوا كما تتردد انت الآن .. ومن يدري فقد يتاح لك ان تساعدني في اداء هذه المهمة الجليلة .

ــ وما الفائدة من هذا كله ؟

ــ الم اقل لك انني اسعى الى غاية بعيدة ، ان بودي أن انقذ البشر واحقق بينهم العدالة وهذه هي الطريقة المثلى الوحيدة لذلك .

وتظاهر س .. بأنه فهم مراد المدير . قال له هذا اخيرا :

ــ فكر في الموضوع ، ولا يكن هذا جوابك النهائي ، وعد إليّ صباح غد ، وستجدني في انتظارك ، ولا تنس أن السيرك سيرحل عصر غد .

صافح س .. المدير بيد جامدة باردة ومضى في طريقه .

لم يجد س .. الى النوم سبيلا في تلك الليلة ، ومع انه كان متعبا نعسان فقد ظل يتقلب طويلا في فراشه قبل ان يغفو اخيرا . وكان طوال ذاك الوقت يفكر في هذا الموضوع العجيب الخطير الذي برز له مساء هذا اليوم . وكانت نفسه تهم بطي الموضوع وصرف النظر عنه ثم لا يلبث ان يشعر بشيء من الخدر في استرجاعه والعودة اليه ، لكم تمنى في حياته أن يصبح انسانا يصفق له الجمهور ويحوز اعجاب الناس . لقد حلم ذات يوم أن يصبح محاضرا يتقاطر

الناس لسماع محاضراته ولكن ظروفه لم تتح له ان يتابع دراسته ثم اين عدد مستمعي المحاضرات من مشاهدي السيرك ؟ ! وفكر في وضعه : اي مستقبل ينتظره ، انه لن يبرح هذا المكتب الجالس اليه حتى يموت ، ولن يترفع فليس هناك وظيفة شاغرة في الملاك ، سيظل كما هو سنوات طويلة وليس له الى ذلك ، من يلتمسه او يدعمه في المديرية .. اما هناك فقد يسعده الحظ فيتقدم ويصبح مهرجا . آه ! ما اجمله من عمل ! ان انظار الآلاف من الناس تظل شاخصة اليه . لقد وعده المدير بذلك ولا شك . والسفر ...! والتنقل .. والخروج من البلدة ! والذهاب بعيدا بعيدا ، والقيام بعمل نافع مفيد واداء رسالة كبرى !! سيتاح له ان يتنقل من بلد الى بلد ، وهو الذي لم يستطع الى الآن ان يغادر بلدته الكئيبة . اية مباهج تنتظره ، وفتيات السيرك ؟ لماذا لم يذكرهن ! انهن جميلات القوام رشيقات الخطا . ثم الا الا يحتمل ان يكون بين القردة فتاة يسعده الحظ بالتعرف اليها والزواج منها وقد يئس وهو في وظيفته تلك ان يتزوج ؟! لقد كان المدير على حق حين زعم له أن السيرك ينقذ الناس .. ولكنه سرعان ما كان يعمد الى طرد هذه الافكار من ذهنه ثم لا يلبث أن يعود ليتملّى مباهج السيرك . وغفا اخيرا متعبا ، منهوك القوى ..

* * *

وجد س .. نفسه جالسا في الصباح الباكر الى طاولته في غرفته الصغيرة يخط بعض الرسائل الى اصدقائه ومديره في العمل يخبرهم فيها انه مسافر الى امد بعيد . ولم يدل بأية تفاصيل اخرى .

ومضى سريعا الى السيرك ، ومن عجب ان المدير كان في انتظاره قبل الموعد ، وشد على يده وهنأه فدخل س .. بسرعة الى المستودع وانحشر بين الافراد واستعد معهم للرحيل ..

١٩٦٢

الرنين الخفي

انتم الذين ترون س .. صباح مساء وتلتقون به منذ أمد بعيد . لا شكّ في انكم لاحظتم الغمّ والكآبة اللذين يرينان عليه . لعلكم لا تعرفون سر ذلك فيما اعتقد ، اما اذا كان يهمكم معرفة سبب كآبته وغمه ، فاليكم ايها الاصدقاء قصة كآبته العميقة وغمه المقيم .

ان سبب غمه ، في مجمل القول ، يعود الى رنين هذا الجرس الخفي الذي لا يراه . لا تعجبوا ولا تتعجلوا في طرح الاسئلة ، فانا موافيكم بالحديث عن هذا الجرس اللعين . متى بدأ احساسه بصوته واين كان ذلك ؟ الحق انه ليعجز عن الاجابة عن هذا السؤال اجابة دقيقة واضحة . ربما بدأ يرن في مسمعه يوم مولده ربما كان ذلك اذ هو نطفة في رحم امه ، ولعله استمع اليه وهو صبي صغير يلعب

مع رفاقه في المقبرة القريبة من حيه ، ربما ... ولكن ارتباط صوت الجرس بكآبته هو الامر الهام الذي يعنيكم ، اليس كذلك ؟

حتى هذا الارتباط نفسه لم يتم دفعة ولم يحدث بين ليلة وضحاها وانما تراكم شيئا بعد شيء كما يتراكم التراب فوق تابوت الميت .

اجل ، لقد سمع هذا الرنين ذات يوم في وقت لا يستطيع تحديده ، ان رنينا خفيفا يشبه رنين جرس داره قد رنّ في اذنه فترة وجيزة جدا ، نعجب لهذا الصوت ، ولكنه لم يعره اهتماما ، فأغفل امره واهمله ، ثم لم يلبث ان نسيه نسيانا تاما . ولكن هذا الرنين عاود س .. بعد اسبوع أو اكثر ، فلم يوله كذلك اي اهتمام . وخيل اليه ان اذنه قد تكون بحاجة الى علاج ، وعقد العزم ، أنه اذا تكرر هذا الرنين في اذنه ، فسيعرض نفسه على طبيب فلعل في هذا الرنين اشارة الى مرض او بداية مرض . وقدر ان من الخير علاج المرض في بدايته قبل ان يستفحل أمره ويشتد .

ولكنه لم يجد من حاجة الى الالتجاء الى الطبيب الا بعد حين ، بعد زمن بعيد ، كان ذلك يوم بلغ به الضيق حدا لم يعد يطيق فيه صبرا على وضعه ، ذلك بأن رنين الجرس استمر يدوي في اذنيه فترة طويلة ، وتكررت هذه الظاهرة عدة مرات في الاسبوع .. وكان اشد ما يؤلمه انه يضطر في تلك الاثناء الى ان يتوقف عن العمل ويجلس في مكتبه بهدوء ، مستسلما لخيالاته ريثما يهدأ رنين الجرس ويستكين ، عند ذلك يتاح له ان يتابع عمله الذي انقطع عنه .

وقصد احد الاطباء المشهورين وجلس في ردهة الانتظار فترة طويلة يترقب دوره ، وإمّا حان دوره فكر في ان يعود أدراجه ، فلا يدخل غرفة المعاينة لانه لم يكن يشعر آنذاك بأي شيء وخشي ان يسخر الطبيب منه أو يظن به الظنون غير ان تردده هذا جاء

بعد فوات الاوان اذ راى ان الطبيب كان واقفا على الباب الذي يصل الردهة بغرفة المعاينة ينتظر دخوله وراى ان ليس ثمة مهرب فدخل .

شكا س .. للطبيب علته ، وحدثه في شيء من الخجل عن هذا الرنين الذي يضايقه وراح الطبيب يصغي في انتباه الى اقوال س .. حتى فرغ هذا من كلامه ، اقترب منه واضاء مصباحا كهربائيا وراح يفحص اذنيه في كثير من العناية والدقة . وحين انتهى من ذلك جلس الى طاولته واخذ يطرح على س .. عددا من الاسئلة حول الامراض التي اصيب بها في طفولته ، والامراض التي أصيب بها اهله . وكيف مات هؤلاء ، وكان س .. يجيب على هذه الأسئلة اجابات صريحة واضحة فأنباه بأنه لم يصب بأي من الامراض الخطيرة ، وان اهله ماتوا جميعا حتف أنفهم منذ زمن بعيد ، وأن ليس في الاسرة كلها انسان مصاب بعاهة اية عاهة . وانه لا يدمن الشراب ولا يدخن ويعيش حياة سليمة طبيعية وأنه متزوج منذ زمن بعيد ، وان له ولدين يافعين وابنة صغيرة .

اقام الطبيب برهة يتفكر ثم قال له :

ـ ليس للامر الاهمية التي تظن ، ارى ان نغسل لك اذنيك فقد يكون قد تراكم فيهما بعض الغبار او دخلتهما بعض الجراثيم .

قال س .. :

ـ لا بأس في ذلك . اني على استعداد ، ويهمني ان أنتهي من هذا الموضوع بما أمكن من السرعة متى ترى ان نقوم بذلك ؟ الآن ؟

قال الطبيب :

ـ لا نستطيع ذلك اليوم ، فقد امسى المساء . هل تستطيع ان تأتي غدا ؟

ـ استطيع ذلك بالتأكيد .

ـ حسنا ، ان موعدنا اذن الساعة الخامسة من بعد ظهر الغد.

نقد س .. الطبيب اجرته وشكره . وهمّ بمغادرة العيادة ، الا ان الطبيب استوقفه وقال له :

ـ هل تعرضت للبرد هذا الاسبوع ؟

تريث س .. يفكر . لم يكن يدري هل تعرض للبرد أم لا . ولكنه قدّر ان سؤال الطبيب لا بد أن يكون على شيء من الاهمية ، فأعمل فكره طويلا ، وهزّ راسه آخر الأمر وهو يقول :

ـ اعتقد انني شعرت بشيء من البرد اول هذا الاسبوع .

فقال الطبيب :

ـ تجنب البرد ما امكن ، فالبرد يؤذيك كثيرا ، ثم اجال طرفه في الردهة المقفرة . كانت الممرضة تخلع سترتها البيضاء فقال لها الطبيب :

ـ تستطيمين ان تذهبي بعد ثوان فقد انتهينا .

وقال لـ س .. :

ـ كيف استطعت ان تتذكر انك بردت ؟ واين شعرت بذلك ؟

قال س .. خجلا متلعثما :

ـ لا استطيع ان اؤكد ذلك بشكل قاطع ولكنني وقد سألتني هذا السؤال ، تبادر الى ذهني أن ذهابي الى المقبرة أول هذا الاسبوع ، لتشييع جنازة خالتي العجوز ، قد عرضني لبعض البرد، لان المقبرة تقع ، كما تعلم ، على سفح الجبل في مكان مقفر من ظاهر البلد ، تتناوح فيه الرياح ، ولعلي لم اتخذ الاحتياطات الضرورية ، لانني كنت منفعلا آنذاك .

ـ هل كنت منفعلا حقا ؟

ـ اجل .

اطرق الطبيب برهة ثم رفع راسه ، وظلال ابتسامة باهتة تكاد ترتسم على شفتيه وقال :

ـ فيمَ انفعالك ؟ هل كنت تحب خالتك العجوز كثيرا ؟؟

ـ لا .. اقصد نعم كنت احبها كما احب اقربائي وسائر الناس ، ولكن لم يكن ذلك سبب انفعالي .

ـ اذن ؟

ـ اعتقد أن سببه أعمق وابعد ، لقد تألمت كثيرا وشعرت برعدة تمس أوصالي حين رايته صانع التوابيت يدق المسامير في النعش بعد أن حملت جثتها ووضعت في التابوت الصغير وغطي التابوت . كان كانما يدق المسامير في عظامي ، وقد سرت في الجنازة وأنا أشعر بغصة محرقة في حلقي .

لم ينبس الطبيب بكلمة ، بل راح يخلع سترته البيضاء ويستعد للذهاب ، فحياه س .. ومضى على أن يعود ظهر اليوم التالي .

وفي اليوم التالي كاد يلغي هذا الموعد ويصرف عنه النظر ، فقد لاحظ انه لا يشكو شيئا في اذنيه وأن صحته على ما يرام ، ولكنه مع ذلك راى انه من الافضل أن يفعل بما اشار عليه الطبيب ، فمضى في الموعد المحدد ، وبعد أن انجز الطبيب عمله ، شعر س .. أن أذنيه قد غدتا سليمتين جدا ، وتنفس الصعداء شاكرا للطبيب حسن علاجه .

ومرت شهور طويلة ضاع فيها كل اثر لهذا الرنين الذي كان يسمعه يضج في اذنيه فاستسلم للعمل الكثير الذي كان ينوء به في مكتبه .

ولو ان الامر توقف عند هذا الحد ولم يتعرض س.. للمفاجآت التالية ، لهان الامر ولم يكن فيه ما يستدعي الغم أو الكآبة . ذلك بأن ما تعرض له س .. في الفترة الماضية كان بداية ولم يكن نهاية ففي منتصف فصل الربيع بينما كان النهار يمتد والحرارة تزداد في الجو سمع س .. رنين جرس منزله مساء احد الايام ، كان الصوت واضحا صافيا ، وكانت الاسرة كلها جالسة في غرفة الطعام تتناول عشاءها ، على عادتها ، فوضع س .. منديله على الطاولة ونهض ليفتح الباب . وحين هم بالسير لاحظ أن افراد الاسرة المنهمكين في تناول الطعام لم يدركوا معنى قيامه ، فقال لهم :

ـ جرس المنزل يرن ، أليس كذلك ؟

فنظروا اليه جميعا في دهشة ، وقالت زوجه :

ـ لم نسمع صوته .

وايدها الاولاد بعيونهم .

ففطن س .. لنفسه ، وتذكر الرنين الذي كاد ينساه ، فجلس ممتعضا منزعجا ، ولم يلبث جرس الباب ان قرع مرة ثانية قرعا طويلا . ولم يكن ثمة مجال للشك هذه المرة ، فقام س .. دون أن يلتفت الى أفاد اسرته ، واجتاز الردهة حتى بلغ الممر الخارجي وفتح الباب .

لم يتبين س .. احدا أول الامر ، فقد كان الظلام مخيما ، ولكنه ، بعد حين تبين ملامح شخص يعرفه كان واقفا على بعد خطوات من الباب ، قال في نفسه : « من هذا ؟ اني لأعرفه » . ثم قال له :

ـ تفضل !

ولكن الواقف امام الباب لم يتحرك بل ابتسم ابتسامةعريضة،

وهز راسه ثم انصرف . فراح س .. يغلق الباب في تمهل ، وعاد ادراجه . انه ليعرف هذا الطارق حق المعرفة . ولمع في ذهنه اسم لم يشأ ان يتفوه به : ابوه . اجل انه ابوه : ابتسامته وحركة راسه. ولكن اباه ميت منذ زمن بعيد ، منـذ اكثر من عشر سنوات ! ! اهذه رؤيا ؟ اهو واهم ؟ ولكن س .. كان واثقا كل الثقة مما راى. لقد كاد يمسكه بيديه . وحين اوى الى فراشه لم يجد سبيلا الى النوم ولم يتح له ان يغمض عينيه الا في ساعة متأخرة من الليل .

وفي اليوم الثاني تكرر قرع الجرس في الوقت نفسه وفتـح س .. الباب ليجد أمامه امه ، وكانت قـد توفيت قبل ابيه ، تبتسم على الباب ثم تختفي بسرعة ، اما في اليوم الثالث فقد حاول س .. جهده الا يقوم فيفتح ، ولكنه وجد نفسه مسوقا الى ذلك بقوة لا يدرك كنهها . ومن عجب انه وجد في هذه المرة جده واقفا في المكان المحدد ينظر اليه ويبتسم له ... لا شك في ان هذا جده . فهو يشبه صورته الكبيرة الموضوعة في غرفة الاستقبال مذ كان س.. صغيرا . وتكررت هذه الزيارات المسائية تكرارا منتظما دقيقا حتى كادت اعصابه تتقطع من التوتر والتحفز . وكان اكثر مـا يدهشه ان هذا العالم الذي يعيش فيه هؤلاء الراحلون قد اختلط بعالمه حتى كاد الحاجز الذي يفصل ما بين العالمين يختفي .

لم يجرؤ على ان يفاتح احدا من الاسرة بهذا الموضوع خشية ان يسخروا منه . بل طواه في اعماقه وراح يفكر فيه صباح مساء. وراى اخيرا ان يهرب فيسافر الى بلد بعيد . وفي الواقع فقـد حصل على اجازة مرضية لمدة اسبوع وسافر الى بلد بعيد . وفعلا فقد وجد انه أصاب في سفره هذا ، اذ سرعان ما استسلم لاجواء جديدة واصدقاء قدماء كانت تربطه بهم روابط متينة من ايـام الدراسة ، وراح يقضي أيامه متنزها متنقلا بين المقاهي ودور اللهو والمنتزهات ، فلا يأوي الى غرفته في الفندق الا بعد منتصف

الليل . وحاول ، رغم الرنين الذي كان يعاوده بين حين وآخر على نحو طفيف جدا ، ان ينسى الموضوع ويتجاهله . وفي الواقع فقد اطمأنت نفسه وطابت فترة من الزمـــن . الا ان صوت الجرس عاوده في احد الايام التي او ى فيها الى الفندق في ساعة مبكرة ، فقام يفتح الباب ليجد امامه اباه ، اباه نفسه ، وقبل ان يجد الجراة ليقول له اية كلمة ، كان قد اختفى . وصمم في قرارة نفسه ان يضرب اي شخص من هؤلاء الموتى اذا عادوا فزاروه ، ولكن الزيارات تكررت على سابق عهدها ، فلم يجد بدا من ان يجمع امتعته ويهيء حقيبته ويعود من حيث أتى .

■ ■ ■

كان الطبيب ينتظره في عيادته ، وبعد ان فحصه طويلا ضرب بيديه على سترته البيضاء وقال له :

ــ كنت على ثقة من انك ستعود الي عاجلا أم آجلا .

ــ حقــا ؟

ــ نعم .

ــ ما رايك ؟ انني اشعر بغم قاتل ..

فلم يجب الطبيب ، وظل فترة طويلة ساهما واجما . فكرر س .. سؤاله :

ــ ما القضية ؟ وما العمل ؟

قال له الطبيب في هدوء :

ــ لا تتعب نفسك في زيارة الاطباء واستشارتهم . ان داءك..

وتوقف قليلا ، وكأنما الكلمات التي سينطق بها اثقل من ان يستطيع س .. تحملها . قال س .. في لهفة :

ـ ان دائي ..

ـ ان داءك لا برء منه ولا علاج له .

ـ ولكن اهو داء حقا ؟

ـ سيان ان تسميه داء او لا تسميه .

ـ كيف ابتليت بهذا ، ايها الطبيب ، كيف ابتليت به ؟

ـ الا تعرف ذلك ؟ عجيب ، انه الداء الذي تحمله الحياة للانسان منذ مولده .

ـ وهل تشعر انت ايضا به ، وهل يشعر سائر الناس بمثل ما اشعر ؟ ؟

ـ لست ادري بمَ اجيبك .. ان بعض الناس لا يشعرون بهذه الجرثومة قط ، وبعضهم يشعر بها ويتجاهلها ، وبعضهم تقض مضجعه . ان هذا يتوقف على مدى حساسية الانسان .

ـ وانت ؟

ـ انني اعرف هذا الرنين الخفي ، ولكنني قلما اسمعه ، لعل مهنتي قد خدرته وقد يتاح لي ان اسمعه في الايام المقبلة ، لست استطيع ان اجزم برأي في الموضوع .

قال س.. في ضراعة :

ـ اسكته ايها الطبيب ، اسكته ، ارجوك ! !

ـ عفوا ، لست استطيع ذلك ، ان مهنتنا تحرم علينا قتل المرضى .

ـ آه !

■ ■ ■

حين اوى س .. الى منزله ، جلس على احد المقاعد صامتا مستسلما لافكاره ، وبعد برهة سمع زوجه ترحب بقدوم الكاهن الشيخ الذي اعتاد ان يزور الاسرة بين الفينة والفينة . وقام س.. يرحب به على عادته ، واما استقر بالكاهن المقام قرب كرسيه من كرسي س .. وهمس في اذنه قال :

ـ هل انت مريض ؟

ـ كلا ، كلا ، لست مريضا .

ـ لقد رايتك قبل حين تخرج من عيادة الطبيب ، فخطر لي ان أزورك لاستفسر عن صحتك .

وتمتم س .. في ارتباك :

ـ شكرا ، شكرا .

ـ ما بك ؟ قل لي . هل تشكو من شيء ؟ ارجو الا يكون خطيرا .

وتردد س .. قليلا . هل يحدثه عن هذا الرنين الخفي الذي يقض مضجعه ، وعن استشارته للطبيب واخفاقه ، أم يطوي سره في صدره ؟

الحّ الكاهن الشيخ في السؤال :

ـ لا تخفِ عني شيئا يا ابني . فانا اعرفك منذ صغرك ، ويسرني أن اقدم لك العون الذي استطيع ..

وراح س.. يسرد على الكاهن الشيخ مشاعره ، فأصغى اليه الكاهن طويلا دون ان ينبس بكلمة وحين قدمت زوجه القهوة توقف س .. عن الكلام .. وراح الثلاثة يرشفون القهوة ببطء .

قال الكاهن الشيخ للمراة :

ـ ارجو ان احادث زوجك على انفراد .

فانسحبت المراة بهدوء ومضت تعد لطعام العشاء .

ـ اكمل الآن يا بني .

وتابع س.. كلامه ، حتى اذا انتهى منه راى الكاهن الشيخ يهز راسه ، ثم قال له بصوت خافت :

ـ هل تسمح لي بأن اطرح عليك سؤالا يا بني ؟

ـ تفضل !

ـ هل تؤمن بالله ؟

فلم يحر س .. جوابا . عند ذاك قال له الكاهن في منتهى الهدوء :

ـ قل لا تخش شيئا .

ـ الحقيقة انني لا اؤمن بالله يا ابت .

ولكنه لم يجد علاقة بين حالته وسؤال الكاهن ، فقال له :

ـ وما العلاقة ؟ ثم هل عرفت هذا الداء ؟

وخطرت له فكرة سريعة فبادر يقول قبل ان يتيح للكاهن ان يجيب عن سؤاله :

ـ إذا آمنت بالله يسكت هذا الرنين وينقطع .

مدَّ الكاهن يده فتناول لفافة من العلبة التي أمامه ، واشعلها ونفخ الدخان فعبقت الغرفة برائحة الدخان العطرة .

ـ هذا الداء اعرفه ، انه في عروقنا جميعا .

ـ لا اهمية الآن لهذا . لم تجبني عن سؤالي : إذا آمنت يسكت هذا الرنين وينقطع ؟

ـ يؤسفني ان اقول لك كلا .

ـ اذن ما الفائدة من الايمان ؟

ـ ما الفائدة ؟ الفائدة يا بني ان صوت الرنين الذي يلازمك على نحو مزعج يستحيل الى رنين ذي ايقاع ، هذا كل ما في الامر .

ـ اواثق انت من ذلك ؟

ـ كل الثقـــة .

ـ ولكن الرنين لا ينقطع ، وفي هذا ما فيه من الازعاج .

ـ ليس المهم ان ينقطع ، المهم ان يكون له وقع .

ـ ولكنه مزعج على كل حال ، وليس يرغب المرء في ان يستمع دائما الى رنين ، ولو كان هذا الرنين عذب الايقاع .

ـ ان هذا موضوع آخر . انها الحياة يا بني ، ولست تستطيع ان تغيرها .

ووقف بعد ان اطفأ لفافته ومد يده مودعا وهم بمغادرة المنزل ، وحين وصل الى الباب التفت نحو س .. وقال له :

ـ سأدعو الله ان يعطي للرنين الذي في اذنيك وقعا آخر .

وانصرف .

هل عرفتم الآن ايها الاصدقاء سبب كآبة س .. وغمه المقيم لست ادري بالتحقيق ان كان الله قد استجاب لصلاة الكاهن ، ومهما يكن من امر فان الذي ادريه ان هذا الرنين ما ينى يقض مضجعه وان لا سبيل للخلاص منه ما دام على قيد الحياة .

البحث المضني

لا تسألوا كيف انتهت هذه القصة او كيف ستنتهي ، فأنا لا اعلم شيئا عن نهايتها والامَ أفضى الامر ببطلها س .. واغلب الظن انه هو ايضا يجهل ذلك كل الجهل ، وليس يدري متى سيتوقف بحثه وإلامَ سينتهي . اما بدايتها فقد حدثت على النحو التالي :

انطلق س .. مساء ذلك اليوم ، بعد ان انجز اعماله وارتدى ثوبه الجديد ، متجها الى منزل صديقه المحامي ليهنئه بعيد ميلاده فقد جرت العادة ان يهنىء س .. معارفه واقاربه ، الذين لم يكونوا كثرا ، في المناسبات الرسمية ويعزيهم حين تلم بهم النوائب أو النكبات ، وأن يعودهم اذا مرضوا حاملا اليهم الازهار ويبدي شيئا من اللهفة على صحتهم الغالية ، ثم يخرج من عندهم وقد

انسي كل شيء يتعلق بهم . اتجه اذا في ذلك المساء الى منزل صديقه المحامي ، ومع انه لم يكن يشعر بكثير من المودة نحـوه فقد كان يقوم بهذه الزيارة مرة كل عام . وكان يسره ان يلتقي في منزل صديقه هذا ، وفي منازل الاصدقاء الآخرين ، اناسا غيره قد جاءوا للسبب نفسه ، وللقيام بالمهمة ذاتها ، وكان ذلك يخفف عنه بعض ما يشعر من ضيق واحراج ..

ومع أن منزل صديقه هذا كان بعيدا ، فانه لم يشأ ان يستأجر سيارة توصله اليه ، بل آثر ان يقطع المسافة سيرا على قدميه . فمضى يجتاز الدروب والشوارع شبه غافل عما حوله ، مطلقا لافكاره وتأملاته العنان ، متابعا اياها ، الا ان يدهمه صوت بوق سيارة او شاحنة ، فيعود الى الرصيف وسرعان ما يستأنف سيرته الاولى . كان الطقس ربيعيا جميلا ، والهواء يهب عليلا فينفذ الى صدره ويملؤه نشوة وطمأنينة وحبورا ، وانتهى الى البناية التي يقيم صديقه المحامي في شقة واسعة جميلة منها . (كانت بناية ذات نوافذ زرق ، مسورة بجدار تتعلق به شتى النباتات وتطـل من فوقه رؤوس الاشجار) وبعد أن اجتاز الباب الحديدي الاسود الكبير ، سار بضع خطوات في الممر الرخامي بين مجموعة من النباتات والازهار ثم دخل المبنى وارتقى السلم الابيض ببطء وحين بلغ الطابق الثاني ، دق الباب الذي على اليمين ، وانتظر هنيهة وهو يسوي عقدة عنقه وكانت تأخذ بخناقه بعنف ، ثم فتح الباب وسمع صوتا يقول له :

ـ تفضل .

لم يتبين س .. الوجه الذي فتح له الباب ، فقد كان متواريا تقريبا خلف الباب الخشبي الكبير ولكنه تبيّن فيه صوت فتاة ، فقدّر انها الخادم . واتجه نحو المشجب ليخلع معطفه ويعلقه ، فانتهز هذه الفرصة ليستدير قليلا ويتفرس في وجه صاحبة ذلك

الصوت ، ولم يلبث ان شعر بالدهشة حين رأى امامه لا خادما بل ممرضة ، ترتدي الصدار الابيض وتضع فوق شعرها قبعة بيضاء وتنتعل حذاء وجوربا ابيض .

وقف لحظات صامتا لا يستطيع ان يتفوه بحرف . ثم اعتمد على شجاعته والتفت الى الفتاة وقال لها :

ـ عفوا ، اتراني أخطأت منزل صديقي المحامي ...

لم يبد على الفتاة انها فهمت شيئا ، فقالت له :

ـ ليس هذا منزل محام ، انه مستشفى كما ترى ، تفضل ، تفضل ..

قالها بسرعة وهو مرتبك :

ـ ولكنني لم آت الى المستشفى ، انني اقصد منزل صديقي المحامي .

ثم أضاف :

ـ آسف ، لعلي اخطأت في الباب .

وهز راسه وكانه أصبح واثقا من ذلك وقال :

ـ لا بد ان يكون في الطابق التالي .

ولكن دهشته بلغت غايتها حين قالت له الفتاة :

ـ ولكن المستشفى يشغل البناية كلها ، وليس فيه اي منزل .

فقال لها :

ـ آسف ، على كل حال ، لا بد انني سهوت فدخلت البناية خطأ وكان ينبغي ان أدخل البناية التي قبلها أو بعدها . ربما كنت شارد الذهن فتجاوزت البناية التي يقيم فيها صديقي .

لم تقل الفتاة كلمة واحدة بل سارعت تفتح نافذتين متقابلتين تطل كل منهما على احد جوانب الطريق ، وقالت له :

ــ انظر من هنا ومن هناك !

فلم يتحرك س .. كانت الدهشة ما تزال مستولية عليه ، فالحت الفتاة تقول :

ــ هيا انظر !

ووجد س.. نفسه مسوقا الى ان يمد راسه في كل من النافذتين على التوالي . وفعلا لم يكن هناك اية بناية في كل تلك المنطقة .

وقف يسائل نفسه اتراه ضل طريقه او تاه في هذه المنطقة من المدينة مع انه يعرفها حق المعرفة وقد سبق له ان زارها عشرات المرات . بل انه ليجهل ان ههنا مستشفى ، ولم يره من قبل ولم يسمع به قط . وحين بلغت به الحيرة أوجها قال مسائلا الفتاة :

ــ هناك سؤال ارجو ان تجيبيني عنه .

ــ ماذا تريد ؟

ــ هل هذا المستشفى جديد في هذه المنطقة ؟

لم تجبه الفتاة بل راحت تضحك ، ثم قالت بعد ان انتهت من ضحكها :

ــ لست ادري متى شيّد ، كل ما اعرفه انني اعمل فيه منذ خمسة اعوام .

ثم اشارت اليه ان يتريث هنيهة ، ذلك بانها لمحت ممرضة مسؤولة عن هذا الجناح ، ورات ان تترك لها موضوع هذا الانسان المحيّر ، فنادتها بحركة من يدها ، وسرعان ما اقبلت تلك ،

فتفرشَت في وجه س .. وافترُّ فمها عن ابتسامة عميقة ، وقالت لـه :

ـ انتظر ههنا لحظة ، وساعود اليك فورا ، فقد انتهت فترة عملي وسأبدل ثيابي . لقد اتيت في الوقت المناسب .

ثم التفتت الى الممرضة التي وقفت ذاهلة ، وقالت لها :

ـ اما انت فأرجو ان تنجزي ما كلفت بالقيام به ، ريثما يحين موعد انصرافك وتحل محلك الممرضة المناوبة لهذه الليلة .

ومضت كل منهما في اتجاه وخلفتا س.. في بهو الانتظار . مسح هذا جبهته بيده ، لا يدري ماذا سيفعل ، ولا يملك تفسيرا لكل ما حدث له وما يجري أمامه . وكان أول ما خطر له ان ينسحب بسرعة ويعود ادراجه . ولكن تلك الابتسامة العذبة التي انطلقت من وجه الممرضة قد حملته على التردد لحظة ، وقال في نفسه : « ليست هذه الفتاة بغريبة عني . وليست هذه هي المرة الاولى التي اراها فيها » . وبذل كل جهده ليتذكر شيئا عنها الا انه لم يفلح . ولكنه ظل مصرا على انه يعرف هذه الفتاة ثم اضـاف : « اذا كنت لم تتعرفها فربما لانها ترتدي هذا الثوب الابيض » .

وهمَّ بمغادرة المكان على عجل ، وفي اللحظة التي كانت فيها عيناه تبحثان عفوا عن المخرج ، انتهى اليه من الخلف صوت الفتاة الذي ملأ بعذوبته كل ما كان يحيط به ، تقول له :

ـ حسنا ، لقد انتهيت ونستطيع الآن ان نخرج . ارايت انني لم اتركك تنتظر طويلا !

لا الوجه عنه بغريب ولا الصوت بجديد ، انه ليستطيع ان يميزها بين آلاف الوجوه والاصوات فأين التقى بهذه الفتاة ومتى كان ذلك ؟! لم يتح له أن يجيب عن هذا السؤال ، اذ ما أسرع ما

وجد نفسه يسير معها في الدروب الطويلة من مدينته الواسعة الكبيرة – ولاول مرة من حياته فيما يذكر ، راى ان بلدته جميلة – واما جن الليل توجها نحو مرقص ليلي فطعما فيه وسهرا ورقصا ما طاب لهما ان يرقصا ، حتى اذا ما تعبا ، او خيل اليهما انهما تعبا – فقد كانا ابعد شيء عن التعب – استراحا متقابلين ، ينظر احدهما في عيني الآخر نظرة ، دون كلام ، تنفذ الى اعماقه فيرى ما فيها ، وكانت الاعماق بحيرة زرقاء صافية ، لا عاصفة فيها ولا اضطراب ، ما من شيء يعكر صفوها ، ولا يطفو عليها اي كدر ولو ضئيلا . ولم يجد اي منهما حاجة لان يلقي على جليسه اسئلة . او يتعرف عنه شيئا . فلقد بدت الاواصر التي تشدهما بعيدة المدى ، بعيدة التاريخ عميقة الجذور ، تعود الى ازمان لا يمكن تحديدها . هل كان س .. سعيدا تلك الليلة ، ام تراه كان فرحا ، ام أن نفسه كانت قد امتلأت غبطة فأوشكت ان تفيض ورقّت حتى شابهت البلور ، وخفّت حتى لكانها تطير ؟ كان يشعر انه طفل نبت له جناحا فراشة فطار حرا في حقل لم تطأه قدما بشر قط .

ولما تصرم الليل واقفل الملهى ابوابه – وس.. في دهشة من امر ساعته كيف حثت خطا عقاربها بمثل تلك السرعة – خرج فتأبط ذراع الفتاة وانطلق بها ليوصلها الى منزلها . ركبا سيارة اجرة لم تلبث ان هبطت منها الفتاة مودعة على ان يلقاها اذا كان الغد . وعاش س .. يومه ، كل دقائق يومه ، على امل ذاك اللقاء . حتى اذا ازف العصر توجه نحو المستشفى سالكا الدروب التي مشى فيها امس حاثا الخطا ، ولم تخطىء يده جرس الباب فدقه وهو يلتقط انفاسه .

قالت له الخادم التي فتحت الباب ، ويبدو ان وجهه لم يكن غريبا عنها :

– ان معلمي ليس في المنزل فقد سافر لبعض شؤونه .

ولما لم يبد عليه انه فهم شيئا ، سألته :

ـ الست تقصد منزل السيد المحامي ؟

قال س .. دون ان يعي ما يقول :

ـ منزل المحامي !

سرئت الخادم من ان محدثها قد فهم ما ترمي اليه ، فقالت له :

ـ لقد استقبل امس مهنئيه ، واضطر اليوم الى السفر ، واوصاني ان اعتذر عن اي موعد او مقابلة ،فقد اقتضته اعماله ان يسافر بسرعة .

تشجع س .. آنذاك وقال لها :

ـ من حق صديقي المحامي ان أزوره ، ولكنني ابحث اليوم عن مستشفى قريب من هذا المكان ، فهل لك ان ترشديني اليه ؟

ـ مستشفى ؟

اطرقت الخادم هنيهة وانظار س .. وانفاسه معلقة بفمها ، ثم قالت بصوت كصوت الجلاد :

ـ لا وجود لاي مستشفى في هذه المنطقة كلها ، فلا تتعب نفسك في البحث عبثا ، فأنا أعرف كل البنايات كما أعرف ساكنيها . .

ولم تلبث ان تهيأت لاغلاق الباب فاستدار س .. وحيأها بحركة من راسه .

منذ تلك اللحظة انطلق س .. يبحث ، والحق أن بحثه هذا كان طويلا ممضا مضنيا شاقا . فقد طرق ابواب كل مستشفيات البلدة وتنقل فيها في أوقات فراغه كافة مسائلا متطلعا ، يأمل ان تقع عيناه على ذاك الوجه ذي البسمة السحرية . كما طرق عيادات الاطباء في كل أحياء المدينة . كان ينظر الى كل ممرضة ليتعرف

فيها فتاته . ومن عجب انه لم يكن يعرف اسم الفتاة وان كـان يعرفها ، وانه لم يقع لحظة عليها وان كانت تشكل حضورا حيـا حوله . ولم يمتد بحثه وتطوافه يوما واسبوعا وحسب .بل امتد اياما وشهورا وسنوات ، لم يترك مظنا الا اقتحمه ولا شارعا الا توقف فيه ، جلس في المقاهي التي تطل على الشوراع المزدحمة ، ودخل المقاهي المنعزلة التي تطل على شوارع صغيرة ، وام الحدائق في مختلف ساعات النهار وشتى فصول السنة واقام عند موا قف الباصات والحافلات والقطارات ، وجـال في مرائب السيـارات ومكاتب السفريات . لقد جعل من هذا البحث معنى حياته ، فاذا ما انجز عمله في وظيفته انطلق كأن له عملا آخر عليه ان يؤديه او رسالة ينبغي أن يقوم بها كأنما حياته نذر لها . ورغم مرور الايام ورغم مرور العمر الذي خيل اليه انه بدأ في تلك الامسية البعيدة القريبة الغامضة الواضحة فانه ما يزال يبحث ، شأنه شأن مسافر في صحراء قاحلة تفيأ لحظة في واحة بليلة ، ثم لم يلبث ان اضاعها ولم يعد يطيق حياة الصحراء دونها . او شأن نائم منح حلما اخاذا حتى اذا ما استيقظ عجز عن الامساك به واسترجاعه ، كما يعجز الانسان عن استرجاع براءة طفولته . وظل يبحث في حركة دائبة . وكان يتاح له في بعض الاحيان ان يقع بصره على من يشبه تلك الفتاة، ولكنه سرعان ما يستبين خطاه ووهمه ، فيرتد اليه بصره ، وكان يشعر في احيان اخرى بوميض يلتمع فجاة في اعماقه فيحد البصر فيه ولكنه لا يلبث ان يخبو ويتلاشى . ومع ذلك كله فانه على ما يشبه اليقين من أن تلك الفتاة قائمة في اغوار نفسه ، حيثة ما دام على قيد الحياة ، قريبة منه قرب انفاسه ، وانه بحاجة اليها حاجة النهر الى مصبه . اين تراه يلتقيها وأيان يتم ذاك اللقاء . ان س .. يجهل ذلك ، الم اطلب اليكم الا تسألوا كيف انتهت هذه القصة او كيف ستنتهي ، فانا لا أعلم شيئا عن نهايتها وإلام افضى الامر بـ س ...

الشد والتلالؤ

لم يلحظ س .. ان هذا الصباح المشرق يختلف عن سائر الاصباح التي مرت به . ومع ذلك فقد كان يسيطر عليه ، وهو منطلق الى عمله ، شعور بالضيق والقلق ، فسار بخطا مسرعة الى مكان عمله خوفا من ان يصل متأخرا .

ولكنه ما ان قطع عشرات الامتار ، وخرج من الشارع الذي يقيم فيه حتى بدا له ان نور النهار المتلألىء قد اخذ يتعكر شيئا فشيئا ، وقدَّر ان الشمس التي كان وهجها يلتمع في صفحةالسماء قد تغطت ببعض الغيوم فلم يأبه بها ومضى يغذ السير . ولكن العتمة ما لبثت ان ازدادت ، فما كان منه الا أن التفت الى خلفه يتطلع الى الشمس التي كانت قد غمرت اسطح المنازل وبدات

تتسرب الى غرف المباني حين غادر المنزل ، فاذا هي قد احتجبت ولم يبق لها اثر في السماء ، ورای من بعيد جدارا اسود عاليا يسد الافق خلفه ويفصله عن الشمس ، ومع انه دهش لهذه الظاهرة التي لم ير لها مثيلا من قبل ، الا انه تابع مسيره . وقال في نفسه : ساعرف ما هذا الجدار فيما بعد ، حين ابلغ مكان العمل ، ولا شك انني واجد عند رفاقي تفسيرا له ، اما الآن فموعد العمل قد أزف واراني ما ازال بعيدا لما ابلغ مكان عملي بعد ،وازدادت العتمة فتريث س .. قليلا يبحث حوله ، فاذا الجدار الاسود الذي كان بعيدا عنه قد اخذ يقترب منه ، فجرى مسرعا وهو يلتفت وراءه كان الجدار يتقدم نحوه بسرعة وكأنه يقتفي اثره ، فما كان منه الا ان اطلق ساقيه للريح ، زائغ النظرات لا يلوي على شيء ، حتى نسي عمله ومكان عمله ، وظل يركض مبهور الانفاس حتى بلغ ارضا جرداء لم يسبق لقدميه ان وطأتاها . وتوقف هنيهة يسترد انفاسه ويمسح العرق الذي سال على جبهته ، وادرك ، دون ان يستدير الى الخلف ، او يرفع راسه الى فوق ، انه محاصر وان هذا الجدار قد طوقه فلم يعد باستطاعته النكوص او التراجع او الهرب ، وان عليه اذا اراد النجاة ، ان يسير الى الامام ليتقي هذا السواد المحدق به ، وشعر باضطراب وضيق يأخذان بخناقه ، وتساءل في نفسه : ماذا يريد بي هذا الجدار ؟ ولماذا يطاردني ؟ والى اين ؟ وغفل عن كل ما عداه ، وتبددت من ذهنه كل الصور والمشاغل وسرعان ما احس بصلابة الحجر في ظهره فأدرك ان الجدار قد حاذاه ، واصبح وراءه مباشرة ، ومد ذراعه ، دون أن يلتفت الى الوراء ، يتحسس ما خلفه ، فوقعت يده على حجارة ملساء قاسية صلبة ، فاسند ظهره اليها فاذا هي تدفعه في حركتها المستمرة ، وتطلع الى الامام فوجد سهلا كبيرا يمتد من هذه الارض الخاوية فقرر ان يسير بخطا مستقيمة الى الامام ، وليكن ما يكون ، فما كان له ان يتوقف لحظة واحدة بعد الآن ، فقد احسّ بانه مهدّد

بأن يسحقه الجدار الذي خلفه سحقا ، وازدادت العتمة التي حوله وانطفأ نور النهار انطفاء يكاد يكون تاما .

وكان س ... من الفزع بحيث يستطيع ان يسير الى ما لا نهاية غير شاعر بما يحدث له او مبال به . فأطلق العنان لساقيه يندفعان بسرعة فائقة في هذا السهل ، وكان يركض لا يلوي على شيء ، أما حين كان يتوقف ليستريح ثانية او ثانيتين فقد كان الجداربحجارته الملساء يدفعه بقسوة وعناد فيتابع جريه . وظل في ركضه هذا برهة لا يستطيع ان يحدد كم امتدت ، الى أن بدت له التلال . وكان ظهور هذه التلال مفاجاة بهرته وحيرته . اما كيف ظهرت ومتى ظهرت ومن أين جاءت فانه ليعجز عن الاجابة عن تلك الاسئلة جميعا . وخيل اليه ، الى حين ، ان ما يراه ليس الا وهما ناتجا عن شدة تعبه ، عن تعب قدميه اللتين اخذتا تتورمان خاصة . وومضت في ذهنه فكرة مفاجئة : لماذا لا يحتمي بهذه التلال من الجدار ؟ لماذا لا يضيع بين ثنياتها فتعجز هذه الحجارة الصلبة المتماسكة ان تمسه هناك ؟ وشعر بقليل من الطمأنينة ، أيكون قد آن اوان الخلاص ؟ ثم يعود الى عمله ؟ ولكن اين هو الآن وكيف قطع هذه المسافات كلها التي تبعده عن عمله والناس الآخرين ؟ واين الآخرون ؟ خطر له في تلك الثانية ان يصرخ ويستجير ، ثم كتم صراخه ، فالارض التي حوله خاوية خالية . وكان الجدار في هذه الفترة القصيرة التي استسلم فيها س .. الى نفسه قد تابع مسيرته ، وها هو ذا يحاذيه مرة أخرى ويدفعه الى التلال دفعا .

حين وضع قدمه على احدى تلك التلال لم يكن يستطيع ان يجزم هل قفز اليها او انها كانت تسير في اتجاهه او ان الجدار قد دفعه دفعة حملته الى ذلك التل . ماذا عليه ان يفعل الآن ؟ وقبل ان يفكر في الاجابة عن هذا السؤال ، جاءه الجواب من بعيد ، من

اغوار لا يعرفها ولا يراها . « اركع واحفر ! » لم يختر تلا معينا . لم يكن امامه مجالا للاختيار . وعاد الصوت المجهول يقول له : « اركع واحفر » ! اين يركع وبم يحفر ؟

كان الجدار قد وافاه فشكل قوسا حوله وبدأ يقترب منه وعزله عن التلال الاخرى حتى كاد يحجبها عنه . اذن يجب أن أحفر هنا . وبحث بعينيه عن آلة يحفر بها ولكن المكان كان خاليا من اي اثر انساني يستطيع ان يستعين به . نظر الى اصابعه واحس بقشعريرة تسري في جسمه . ليس الا اصابعه . والصوت يلح عليه بقسوة متزايدة أن أحفر !

وبدأ يحفر التراب ويزيحه بيديه . اذ ذاك انبعث الصوت الرفيع الحاد المتألم النافذ . كان صوتا صغيرا قصير النفس لم يستمر الا جزءا صغيرا من الثانية . ولكنه استطاع ان ينفذ الى اعماق س .. وان يعتصر فؤاده كأنما تجمعت فيه آلام البشر جميعا . فضاعف من سرعته في الحفر . كان العرق يتصبب من جبهته بغزارة ويبلل التراب المرفوع ، وس.. مسرع في حفره مندفع في ذلك اندفاعا جنونيا ، وانطلق الصوت مرة ومرة ومرة . وفي كل مرة يزداد شدة ووسوحا واقترابا منه . كان صوتا يتألف من خليط من صرخات الالم والنشيج والنباح والصراخ تقطعه تنهدات صغيرة ضئيلة تنبعث من حنجرة مبحوحة مخنوقة .

وعمل س .. بأقصى ما يستطيع ان يعمل وباقوى مما تتيح له طاقته . حتى لقد دهش هو نفسه من هذه السرعة وتلك الطاقة ، كان الجدار خلفه قد بدأ يتضاءل فسمح لبعض النور بالتسرب الى اعلى التل . الا ان س .. لم يكن ليعود او يتراجع أو يهرب .. كان الصوت وحده كافيا الأن يشده . ومضى يحفر بيديه اللتين تشققتا ولم يلبث ان احس أن الصوت لم يعد بعيدا عنه وانه موشك ان يصل اليه . وكان كلما اقترب من الصوت تضاعف غمه واشتد

وبدت له آخر الامر ذراعـــان صغيرتان بضتان ، تتحركان وتتلويان من الالم . كان يعرف هاتين الذراعين ، وكان باستطاعته ان يتعرفهما بين آلاف الأذرع الصغيرة غيرها .

توقف يسترد انفاسه ويمسح عرقه المتصبب ، ثم قال للطفل : « انتظر يا بني ، انتظر قليلا ، انتظر ريثما تفعل الابرة مفعولها في جسمك ، ريثما ينتشر الدواء في معدتك . ستبرأ بعد قليل » .

ولكن الطفل لم ينتظر ولم يصمت . حمله على ذراعيه المنهكتين وراح يهدهده . ما الذي يؤلمك . كانت اللغة الوحيدة التي يعرفها هي البكاء . وتنهد الطفل تنهدة طويلة ، كان الهدوء قد بدأ يغمره وراح يتعرق عرقا غزيرا باردا .

واحس س .. الآن ، ان الجدار الصلب الأملس قد اختفى تماما ، وانتظم تنفس الطفل ، وكان يطلق بين الحين والحين تنهدة طويلة ، ولم تلبث ابتسامته أن انعكست على فم س .. وتلاشى التل رويدا رويدا . ولم يبق امامه الا طفله . فاسند راسه الى وسادته الصغيرة واغفى اغفاءة قصيرة .

١٩٦٨

أين المفر؟

مسرحية في تاريخية

الظلمة تعم المكان . يتضح المشهد شيئا فشيئا ليظهر فيه « الرجل » وهو متربع على الارض ، في مكان غامض المعالم ، وامامه مجموعة من المؤلفات الضخمة ، المكان خال الآن ، وربما كان من قبل مجلسا لأصدقاء أو مريدين أو سمار أو حلقةدراسية.

« الرجل » غامض الملامح ضعيف البنية في نحو الاربعين من العمر .

الرجل : لقد آن اوان العودة الى المنزل .. (ينحّي من أمامه مجموعةالمصنفات) (فترة) .. (يتمتم في نفسه وهو يهم

بالوقوف) : الكون والفساد .. الكلية الموجبة والكلية السالبة .. والمصادرة على المطلوب الاول ... (تسمع من بعيد همهمات الخيول ، وقرع الطبول .. اصوات غامضة مختلطة ...) فترة (يستدير قليلا كأنما يوجه الكلام الى شخص ما) يا للمساكين .. يا للمساكين !! !

يظهر من بعيد ، من بعيد جدا ، شبح غامض يرتدي عدة الحرب ، لا يكاد يبين منه سوى وجهه ، لعله شبح طارق بن زياد ، ويرافق ظهور هذا الشبح ظهور الصوت في الاماكن المشار اليها في المسرحية .

الصوت : يا هذا ! يا هذا !!

الرجل : (يلتفت حوله ليستطلع من يناديه ، فلا يرى احدا) ...

الصوت : (بالحاح) : يا هذا يا هذا !

الرجل : (في دهشة) : من المنادي ؟

يلمح من بعيد الشبح فيتوجه اليه بالكلام . تغلب الاشارات على كلامه.

الصوت : الى اين انت ذاهب ؟

الرجل : (بدهشة) : الى المنزل .. يجب ان استريح قليلا وأفكر طويلا ..

الصوت : (يضحك ضحكا مخنوقا) : آه .. آه ..

الرجل : (يهم بالمسير) .

الصوت : قف ، لا تذهب . (يشير اليه باصبعه أن أقبل) .

الرجل : انا ؟ وماذا عسى ان افعل ؟ ماذا تريد مني ؟

الصوت : (بقسوة) : المعركة قريبة ، وانا بحاجة اليك .

الرجل : بحاجة الي ؟

الصوت : نعم .

الرجل : ولكن من انت ؟

الصوت : لقد عرفتني ، اليس كذلك ؟

الرجل : (يخفض راسه دون أن يجيب) .

الصوت : (بعد فترة) : اذن دع اشياءك ، وتعال .

الرجل : ولكنني .. ولكنني ..

الصوت : ماذا ؟ اني اعرف ما يدور في خلدك .

الرجل : ولكنني لست برجل حرب ، ولا أعرف كيف اخوض المعارك .

الصوت : لا عليك .

الرجل : اني اخشى المعارك ، دعني ههنا .

الصوت : انت في صميم المعركة ولو بقيت ههنا . لا مفر منها . لامفر لك ولا لغيرك هيا .

الرجل : يا الهي .. يا الهي اين المفر ؟

الصوت : لا مفر !

الرجل : (كمن يخاطب نفسه) : نفسي في الداخل ، والعالم في الخارج فأين المفر ؟

الصوت : (ضعيف) لا مفر !

الرجل : (يخاطب نفسه) : انني لم امسك سيفا طوال حياتي ، ولم اتنكب رمحا قط ، فماذا انا فاعل ؟

الصوت : المعركة قريبة ، وستكون معركة فاصلة .

الرجل : (لنفسه) : ستفصل بين ايّ شيء ؟ وانّى لي أن أسهم فيها ؟ !

الصوت : اسهم بعقلك ان كنت عاجزا عن الاسهام بوسيلة أخرى .

الرجل : عقلي ؟ !

الصوت : نعم ، اقبل معي واثر روح الحماسة بين الجند ، انني بحاجة اليك .

الرجل : (بفزع) : والموت ؟

الصوت : ستبلوه ، فقد طالما تساءلت عنه ، ولم تدرك كنهه ، هيا .. هيا .

(رجال لا يحصيهم عد ، يمتطون الخيول ، وهم مدججون بالاسلحة . الرجل ممتط فرسا يحثها على الاسراع ، ويحاول أن يلحق بهم ، يمنعه الغبار المتطاير تحت سنابك الخيل) .

الرجل : (مخاطبا نفسه) : اسرع .. أسرع . (وهو يشعر بالعجز عن اللحاق بهم) : انني دائما في المؤخرة .. وعبثا أحاول اللحاق بهم .

(يترجل الجنود عن خيولهم لتناول
الطعام . بعد فترة ، يبلغ الرجل
مكانهم ويقيم بينهم صامتا ، يستمع
الى حوار الجند قربه) .

أحد الجنود : ستكون المعركة عظيمة .

الجندي الثاني : أجل ، وقد اعددنا لها كامل عدتها من رجال وعتاد . .

الجندي الاول : انني اتوق شوقا الى الساعة الحاسمة .

جندي ثالث : وانا كذلك . . .

أحد الجنود : (يخاطب الرجل) : وانت ؟

الرجل (مترددا): انا ؟ . . نعم . . نعم (وحده) وهل هناك من ساعة حاسمة ؟!

الجندي الثالث : هل هذه هي المرة الاخيرة التي نلتقي فيها .

الجندي الاول : ان سيف الموت مسلط فوق رؤوسنا جميعا .

الجندي الثاني : وما همّ ؟ !

الجندي الاول : تنوعت الاسباب والموت واحد .

الجندي الثاني : أجل ، لقد خاض أبي عشرات المعارك ثم مات حتف انفه .

الجندي الثالث : اذا ما مات أحدنا في المعركة فستكتب له الشهادة . .

الجندي الأول : (بنشوة) : الشهادة !

الرجل (لنفسه) : وماذا ستشاهدون ؟

(يتابع الجنود حديثهم دون أن يعي
الرجل ما يقولون . بعد فترة كمن
يخاطب نفسه :

اما اذا انا مت فلن أشاهد شيئا ، لا شيء ، لا شيء سوى العدم . (بعد فترة) وما العدم ؟

الصوت : هيا يا هذا . فقد جاء دورك ؟

الرجل : (يلتفت مذعورا ، يبدو الجميع كأنهم لا يرون ولا يسمعون ما يدور بينهم) : جاء دوري ؟

الصوت : اجل ، هذا اوانك .

الرجل : وماذا افعل ؟ ان المعركة لمّا تبدأ .

الصوت : اعرف هذا . سيقوم الجند عمّا قريب . وعليك أن تثير فيهم روح الحماسة وان تدفعهم الى المعركة بكل ما أوتيت من قوة . اخطب فيهم . وشجعهم ، وحثهم على النضال والموت . وابعث فيهم العزة والانفة ، وصور لهم ما ينتظرهم من خير اذا انتصروا .. وحدثهم عن قيمة الاستشهاد في سبيل العقيدة والايمان والمبدأ . هيا ... ان المعركة لقريبة . اذهب الى هذا التل ، وخاطبهم من فوقه ..

(ينهض الرجل بحماسة ويعتلي ظهر
فرسه ويتجه الى التل فيبلغه .
يتحرك الجنود فيمتطون خيولهم
ويتأهبون للانطلاق .

يتجه الرجل نحو الجنود المقبلين
اليه . اصوات وضجيج وقرع طبول .
يوجه الرجل كلامه الى الجنود

ويقوم بالقاء خطبة طويلة ولكن دون
أن يسمع احد ما يقوله) .

(تشاهد حركات يديه وراسه دون
أن يسمع صوته .
فترة طويلـة) .

احد الجنود : ماذا يقول هذا الرجل ؟

جندي ثان : انني لا اسمع شيئا .

جندي ثالث : وانا كذلك لا أعي شيئا .

الجندي الاول : تريثوا قليلا لنتبين ما يقول .

(يقتربون منه)

الجندي الثالث : ولكنه لا يقول شيئا ! !

الجندي الثاني : اني لا أرى سوى حركات شفتيه ويديه .

الجندي الاول : لعله ابكم . . . هيا بنا .

(يمرون امامه ويدققون النظر في
وجهه ولكنهم لا يسمعون منه حرفـا
فيبتسمون . الرجل هادر في كلامه
وحركاته دون صوت . ينطلق الجنود
لخوض المعركة بينما الرجل ما يزال
في مكانه يقوم بالقاء خطبته وحده دون
صوت . .) .

الصوت : هيا يا هذا . . لقد ابتدات المعركة .

الرجل : اني قـادم .

(يلحق بالجنود فيصبح بينهم ، ولكنه لا يلبث ان يتردد ويحاول الرجوع . يلتفت خلفه فيجد نيرانا تشتعل . يخترق جموع الجند المتقدمة) .

الرجل : اين المفر ؟ اين المفر ؟!

يجد صعوبة كبرى في اختراق الجموع .

احد الجنود : الى اين انت ذاهب ؟

الرجل : (لا يجيب) ...

(لا يلبث أن يقع على الارض من شدة التزاحم ، تتخطاه الخيول في حركتها المتقدمة السريعة .
ينطرح على الارض مبسوط الذراعين ، وبالقرب منه يقف الفرس شاخصا بابصاره كالتمثال ، تشاهد ظهور الجنود وراءه من بعيد) .

الصوت : اين انت يا هذا ... ان نصر الله لقريب ..

الرجل : (لا يجيب ، يتنهد وهو يلفظ انفاسه) آه .. آه ..

الصوت : هيا قم ، وتمتع بنشوة النصر .

الرجل : آه ..

(يخيم الظلام رويدا رويدا . فترة يظهر حول الرجل عدد من الجنود العائدين الى مخيمهم) .

الجندي الاول : هوذا احد رجالنا ههنا ..

الجندي الثاني : لا ، لا اعتقد انه من رجالنا .

الجندي الثالث : انى له أن يكون واحدا منا (يقترب منه) ان رائحة الخمر تفوح منه .

الجندي الاول : لماذا مات هذا الرجل ؟ انه لم يخض المعركة معنا .

الجندي الثالث : لقد مات خطأ !

الجندي الثاني : هيا بنا ولنرسل من يدفنه .. بائس هذا الرجل ، لم يمت في معركة ..

الجندي الثالث : لم تكن له قضية .. لقد خسر شرف الاستشهاد ، وحرم غنائم المعارك ..

الصـــوت : (دون أن يظهر الشبح ، من بعيد) : يا هـــذا ... يا هذا ... أين المفر ؟

(تظهر الجثة مبسوطة اليديــن لحظات ، ثم لا تلبث العتمة أن تسـود المشهد كله) .

١٩٦٦

ختـــام

المسامير

حين اشرقت الشمس وملأ نورها الأرض ، وحين فتح نافذته المطلة على الساحة العامة والشوارع العديدة المتفرعة عنها ، كان كل شيء قد انتهى .

فاعترته دهشة يخالطها العجب والغضب والاستنكار ، وقد ضاعف من دهشته ان كل شيء كان يجري كأن لم تظهر في هذه الساحة تلك الظاهرة الجديدة الغريبة ، وحاول ان يحدق لتزداد قدرته على الرؤية فبدت له افواج الناس وارتال السيارات تسير مسرعا بعضها متباطئا بعضها ، وبدا له كثير من الناس يسيرون بخطا حثيثة ذاهبين الى اعمالهم التي اعتادوا ان يذهبوا اليها في كل صباح ، وبدا له غيرهم يقفون او يتسكعون في مفارق الطرق او امام المخازن التي فتحت ابوابها في تلك الساعة الصباحية .

كانت الشمس ترسل اشعة حادة ساطعة لامعة وكانت الرؤية واضحة . لا سبيل الى الشك في وضوحها ، وفي هذا الوضوح بدت له المسامير !

كانت مسامير حديدية بيضاء لامعة تتوهج في ضوء الشمس وقد زرعت هذه المسامير فوق الاسفلت بمهارة غريبة على شكل صفوف متوازية متقاربة لا يفصل بين الصف والصف الذي يليه اكثر من بضع اصابع ، سجادة من المسامير مفروشة في الساحة العامة بدقة ومهارة ، وخامره شك عنيف ، في صدق ما يرى ، فليس من عادة الارض أن تنبت المسامير ، وليس يخطر للبلدية ، اية بلدية ، ان تزرع الطرقات مسامير ، وبدت له رؤوسها حادة مدببة كرؤوس السكاكين ، وظهرت بعض انصالها القريبة من ساحة رؤيته ، حادة كالنصال والخناجر ، وظل واقفا جامدا يحدق فيما بدا له حتى كاد يصاب بالدوار .

وعنّ له ان ينظر الى الشوارع المتفرعة عن الساحة العامة ، وكانت دهشته اعظم حين راى أن تلك الشوارع كلها حتى الصغيرة الجانبية منها مملوءةبالمسامير نفسها تلتمعهي ايضافيوهج الشمس.

ظل حائرا ساهما فترة لا يدري كم امتدت ، حتى لقد نسي فنجان القهوة الذي كان قد وضعه على الطاولة قبل ان يمضي ليفتح نوافذ الغرفة والخصاص الخشبية ثم عاد ببطء الى ركنه في غرفته يدخّن سيكارته ويرشف القهوة التي وجد نكهتها قد ضاعت ، وقال في نفسه « لعل ذلك لانها بردت » وخطر له انه يرى حلما وان هذه الرؤية كلها ليست الا امتدادا للحلم الذي رآه قبل ان يستيقظ حين وجد نفسه في غرفته في فصل الشتاء والمدفاة موقدة ولسان اللهب يشتعل اشتعالا قويا حادا . ولكنه كان يشعر وسط ذلك الدفء بالاختناق ، واخذ هذا الاحساس بالاختناق يزداد شدة وعنفا وزكمت انفه رائحة نفذت الى صدره ، كانت تلك

رائحة الدخان ورأى بغتة ان المدفأة ليس لها بوار فقد انتزع تكلها ما كان منها داخل الغرفة او خارجها وهب لا يدري ماذا يفعل بعد ان رأى السواد قد ملأ الجدران والنوافذ واستقر على الأثاث ، واستوى في فراشه فأدرك انه كان عرضة لكابوس عنيف ، وقال لا بد أن يكون الآن حالما ، ولم يدر ماذا ينبغي ان يفعل ليتأكد انه ليس في حلم ، فهذه المسامير حقيقية وليست وهما ، ومضى الى المغسلة فغسل وجهه وحلق ذقنه وارتدى ثيابه ، وعاد الى وقفته في النافذة وكان على ما يشبه اليقين انه لن يرى شيئا هذه المرة فقد صحا صحوة حقيقية ، هنا بلغت دهشته ذروتها وفتح فمه مشدوها ، ان المسامير ما تزال في اماكنها والناس يطؤونها غيرعابئين كأنما يسيرون على نسيج من الحرير ، فأدرك آنذاك ان الامر جد ما بعده جد ، قال في نفسه : سأرجيء عملي الآن وسأمضي الى الساحة العامة لأرى هذه الظاهرة عن كثب واستشف سرها واكتشف كنهها .

وسار وحيدا في الشارع فوجد نفسه يمشي ، كالآخرين ، فوق هذه المسامير ،وكان يشعر بين حين وآخر ، وعلى فترات متقطعة جدا انها تخز احدى رجليه وخزا حادا مرة وليّنا مرة اخرى ، فتابع السير ، وصادف كثيرا من السيارات منطلقة في سرعتها المألوفة كما رأى الباصات والشاحنات تسير على عادتها في الشوارع، وحين بلغ الساحة العامة بدت له المسامير كما رآها من نافذة غرفته دون ان يطرأ عليها اي تغيير ، ثم بدت له الشوارع المتفرعة من الساحة مفروشة هي ايضا بتلك المسامير في صفوف منتظمة ، وأطل على الحديقة فاذا أشجارها الخضر واغصانها وفروعها وأوراقها كما هي لم تتبدل ، الا أن العشب الذي يملأ الممرات قد اختفى اختفاء تاما ، وامحت البراعم ، وحلّت هذه المسامير اللعينة محله ، كذلك ملأت المسامير المسالك والدروب في الحديقة ،

والتقى في مسيره ذاك بعدد من الاشخاص كان يعرف بعضهم و كان يجهل معظمهم ، ولم يجرؤ أن يطرح سؤالا على اي منهم ، ولم يجد من يستفسر منه عن انتشار هذه الظاهرة الغريبة العجيبة ، وكان اكثر ما يخشى ان يكون وحده الذي يرى هذه الظاهرة وان يكون قد أصيب بلوثة ولكنه مع ذلك كله كان واثقا من صحة ما يراه وثوقه بعقله وحواسه .

لم يعد صدره يتسع لذلك الفزع الذي استولى عليه ، قال في نفسه : لعل خير ما أفعله الآن هو أن أصلي ، فقد تبدد الصلاة هذا الكابوس المخيف الذي انتشر في المدينة انتشارا خطرا دونه الطاعون .

وقصد المعبد ، كان بعيدا عن هذه المنطقة ولم يشأ ان يستقل الباص بل آثر ان يسير على قدميه كأنما ليزداد تأكدا من وجود هذه المسامير المفزعة في الطرقات والشوارع ، وظل يسير ساعة أو بعض الساعة حتى انتهى الى المعبد وكان قد حل الضحى .

حين اقترب من باب المعبد وجد كل شيء مغلقا فيه ، وحين التمس الباب يريد الدخول ، رأى كبير الكهان على الباب الخارجي يهم بالخروج . كان شيخا طاعنا في السن ، محني الظهر ، ترتعش أنامله فوق عصاه البالية . قد تساقطت معظم اسنانه ، يتدثر بمعطف سميك رغم هذا الطقس الربيعي الدافىء .

لم يدر ماذا ينبغي أن يفعل . فما ان اقترب من كبير الكهان حتى كان هذا قد اخرج من جيب معطفه مفتاحا كبيرا جدا من النحاس وأولجه في ثقب القفل الحديدي الكبير فوقف جامدا لا يتحرك ، نظر اليه كبير الكهان وتوقف هنيهة ، فقد قدر أنه جاء ليصلي ، ولما لم يره يقوم باية حركة ادار المفتاح في القفل دورة أولى فصر هذا صريرا حادا ، ونظر كبير الكهان اليه مرة ثانية

فلم يجده راغبا في الانصراف ، فأدار المفتاح دورة ثانية ، ثم أخرجه من ثقب القفل وظل ممسكا به ، وبدا ان كل شيء قد انتهى ، ومع ذلك فقد ظل الرجلان كلاهما واقفين ، وامتدت وقفتهما بضع ثوان ، واخيرا تنحنح كبير الكهان وانبعث من فمه صوت رفيع حاد كأنه يتصاعد من جوفه فنصدم بما تبقى في فمه من اسنان قليلة وقال له:

ــ امتقد انك جئت تصلي .

لم يجبه اول الامر بل شعر برهبة ودهشة ، وتساءل في سره كيف أتيح لهذا الرجل ان يعرف ما دار في خلده واضاف يقول : هل لوجهي مظهر الراغب في الصلاة ، وهل تبدو الرغبة في الصلاة على سريرة الوجه . استرد انفاسه بمشقة وقال له :

ــ نعم جئته لاصلي .

تحركت لحية كبير الكهان حركة يائسة وقال له :

ــ يبدو انك لم تصل منذ زمن بعيد !

ازداد عجبه فقال بسرعة :

ــ وكيف عرفت ذلك ؟

قال كبير الكهان :

ــ كل الذين يصلون يعرفون ان المعبد يغلق بعد ساعات الصباح الاولى ، ولولا انني دابت في الآونة الاخيرة على اطالة صلاتي لكنت وجدت المعبد مغلقا منذ اكثر من ساعة .

هم ان يستدير فاستوقفه صوت كبير الكهان يقول له :

ــ ولكن قل لي ما الذي دفعك الى هنا هكذا فجاة ؟

اطرق يتفحص ارض الشارع فالتمعت المسامير أمام عينيه

كافاعي وكان بريقها تحت اشعة الشمس كالسم المذاب . رفع عينيه وحدق في وجه كبير الكهان لاول مرة وقال له :

ــ المسامير ! !

ابتسم كبير الكهان ابتسامة يخالطها الشحوب والاسى ، وقال له :

ــ ارى انك احد الذين آلمتهم المسامير .

شعر بشيء من الغبطة من أنه لم يكن واهما فيما يرى فهـا هوذا شخص آخر يشاطره في ذلك ، فقال له :

ــ اجل المسامير !

واضاف وهو متردد :

ــ وانت ... وانت ايضا ...

ــ نعم يا بني ، اني لأرى المسامير في كل مكان .

فساله في فضول :

ــ وهل يراها الناس جميعا كما نراها نحن ؟

صمت كبير الكهان لحظات بدت له طويلة جدا ثم تحركت لحيته البيضاء لتقول :

ــ بعض الناس يراها فيؤلمه مرآها ، وبعضهم لا يراها البتة ، فلا تحرك فيهم ساكنا ، وبعضهم يتظاهر بأنه لا يراها .

وامتدَّ الصمت بينهما ، كان صمتا طويلا ثقيـلا كانه قطعـة ضخمة من صوان اسود لا يمكن تفتيته .

قال الرجل لكبير الكهان :

ـ وما الحل ؟

اجابه كبير الكهان :

ـ لاجل هذا أتيت الى المعبد ؟

فحنى الرجل راسه . قال له كبير الكهان :

ـ لقد اغلقنا المعبد كما ترى ..

كرر الرجل سؤاله :

ـ وما الحل ؟ ان هذه المسامير تكاد تمزق قلبي .

فساله كبير الكهان :

ـ وهل تبحث عن حل حقا ؟

قال الرجل بثقة وايمان :

ـ اجل !

قال كبير الكهان وهو يهم بالمسير اذ يبدو ان هذه الوقفة الطويلة قد اتعبته :

ـ افعل كما فعل الرب حين دنس الاشرار بيته !

ـ وماذا فعل الرب ؟

ـ لقد ضفر سوطا وضرب به من دنس اقداسه وطردهم شر طردة .

قال الرجل :

ـ واين استطيع ان افعل ذلك ؟

ـ امض الى الجبال والسهول هناك في المدى البعيد ...

قال الرجل مستفسرا :

ـ الا وجود للمسامير هناك ؟

ـ بلى انها موجودة ولكن هناك الرجال .

قال الرجل في دهشة :

ـ الرجـال ؟

قال كبير الكهـان :

ـ نعم ، لقد سبقك الرجال الى هناك لاقتلاع المسامير كلها .

ـ كلهـا ؟

ـ اجل !

ومضى كبير الكهان متعبا .

النور ... النور يملأ طريقه ويشده الى الامام ... يحيط به ويلامسه . بدت له الطريق واضحة لاهبة والنور يملأ ارجاء الكون .. كل ما حوله نور ... وشدته خيوط النور بقوة .. حامت حوله واعتصرته فانسته كل شيء .. شدته في اندفاعهـا كأنما تحول الى ذرة من النور .. ومضى معها متجها نحو الجنوب .. نحو الجنوب ..

١٩٦٩

النســـــيان

كان كل شيء على ما يرام حين انتهى الى الضفة في الارض المقفرة . تلفت يمنة ويسرة فلم يجد احدا بجواره ، ولم يجد من يتعقب اثره او يراه حيث كان ، فاطمأنت نفسه وهدأ روعه وأيقن ان الأمور ستسير كما قدّر لها أن تسير ثم شخص ببصره الى الأفق البعيد ــ الى ما وراء النهر ــ فظهر المنظر في ضوء الفجر ذي الانوار المتكسرة باهرا رائعا مخيفا بجماله ، وقال في نفسه : « ها قد وصلت » أما أهله وزوجته واولاده فقد خلفهم هناك وراءه ، بعيدا عنه ، ولن يستطيعوا اللحاق به أو معرفة مكانه الا بعد ساعات طويلة جدا .

وكان النهر الذي لا يختلف عن جدول صغير الا بعمقه وغزارة مياهه يسيل في هدوء وصمت محدثا تكتكة خفيفة اشبه شيء بتكتكة الساعة الكبيرة ذات الرقاص التي تزين غرفة الاستقبال

في منزله ، وتوقف هنيهة يتامل صفحة الماء الرقراقة . قال في نفسه : « ليس من يدري متى اخذ هذا النهر يجري ولا الى اين يجري ولا متى يتوقف . » ثم اضاف ساخرا : « ومن يجرؤ ان يقول انه سيتوقف عن الجريان ذات يوم ! »

داعبته نسيمات الصباح فاحس في صدره بما يشبه الدغدغة فاستسلم لهذا الشعور في نشوة غريبة ، وهبّت موجة من ريح قاسية فاثارت على اقدامه غبارا متصاعدا من الارض المقفرة التي توقف فيها ، فقال : « هيهات البقاء ههنا ! » كل ما حوله متسخ درن ، والتفت قليلا الى الوراء ، لا شيء غير مألوف : تطل من بعيد ، من اعماق بلدته المباني العالية والاشجار ، وبالقرب منه الاعشاب البرية والعوسج ، وهنا اشجار الصبار باوراقها المملوءة بالاشواك المدببة كالابر ، لا شيء جديدا في هذا المشهد الرتيب المتكرر الذي الف رؤيته صباح مساء منذ مئات المئات من الايام . وفي اللحظة نفسها اهاب به صوت لا يدري من اين انبعث ان انظر امامك ولا تلتفت الى الخلف . وامامه بعد الضفة الثانية من النهر كان المشهد الرائع الجميل الذي لا حد لجماله ولا يستطيع اللسان البشري ان يصفه ، يمثل بكل بهائه وجلاله ، هو كون شبيه بفردوس ما راته عين ولا سمعت به اذن انسان ولا خطر على بال بشر تتلألأ فيه نجوم واقمار يخطف ضوؤها البصر . وتساءل في قرارة نفسه : « اتراني خصصت بهذا الملك وحدي ؟ ! » وارهف السمع لكي يلتقط كلمات اخرى تنبعث من ذاك الصوت الذي لا يدري من اين ياتيه ، ولكنه لم يسمع هذه المرة صوتا بل سمع نغما عذبا لم يكن قد تبيّنه من قبل ، نغما لا يشبه اي نغم اتيح له ان يسمعه في حياته كلها . ظل فترة مشدوها مشدودا الى هذا السحر الفائض المتدفق .

لم يستطع ان يجذب ذاته من هذا السحر الذي كان يحيط

به الا بعد لأي وجهد اذ لا بد له ان يقوم بما وطد العزم على القيام به فاستدار يبحث عن بعض الالواح الخشبية حوله الا آن الارض كانت مقفرة خالية ، فبحث في كل اتجاه وسار طويلا حتى انتهى به المطاف الى حقل ، فراح يفتش فيه عن لوح او الواح خشبية . قال في نفسه : « ان مجموعة من الاغصان يربط بعضها الى بعض بحبل متين قد تفي بالغرض » . وهم بتناول بعض الاغصان المقطوعة فاذا به يجد لوحا خشبيا يعلوه التراب ، قال في فرح ظاهر : «هذه بغيتي ! » وحمل اللوح الخشبي ومضى الى ضفة النهر مسرعا خوفا ان يراه او يسمع وقع اقدامه انسان ما .

قال : لست أجيد السباحة والنهر عميق القاع فيما يبدو لي ، وسيتاح لي بواسطة هذا اللوح العبور الى الضفة الاخرى ، وهناك سأقيم واقطع صلتي بكل ما حولي ومن حولي متنعما الى الابد بهذا الفردوس الفاتن .

وضع اللوح على الارض وراح يدفعه حتى يلامس الضفة الثانية، كانت هذه أعلى قليلا من الاولى ، فالتمس بعض الحجارة الصلبة ووضعها تحت طرف اللوح فاعتدل كأنه ميزان قويم ، وضغط على اللوح في عدة أماكن منه فوجده صلبا يستطيع ان يتحمل ثقل جسمه ، ومدّ ذراعه بجهد كبير كي يلامس منتصفه فوجده قويا مرنا كذلك . قال : « ان كل شيء على ما يرام ! ولم يبق الا ان اسير عشر خطوات وينتهي الامر ! »

وما أن هم بوضع رجله على طرف اللوح الخشبي بل قبل ان يلامس باطراف حذائه جانب اللوح حتى نجم له جنديان لا يدري كيف ظهرا ولا من أين اتيا ، وبصوت واحد متشابه ، في نبرة واحدة قالا له :

ـ قف !!

فتوقف وهو لا يدري ماذا يجب أن يفعل ، ولا كيف ينبغي ان يتصرف فقد كانت المفاجأة ساحقة !

لزم الجنديان الصمت فلم يتحركا ولم ينبسا بحرف ، فلزم هو ايضا الصمت واقفا متجمدا كتمثال من الملح !

وبعد لحظات قدر انها اطول من اطول ساعات انتظار مرت به في حياته ، قال الجنديان بصوت واحد :

ـ الى اين انت ذاهب ايها الرجل ؟

احس بأنه يسترد انفاسه التي كادت تتقطع . قال بشيء من الضعة والخجل :

ـ سأمضي الى هناك ، الى الضفة الثانية !

انبعثت من الجنديين في آن واحد وبحركات متشابهة ضحكات مجلجلة مدوية . ثم أشارا الى اللوح الخشبي وقالا :

ـ هذا غش وخداع !

فلم يفهم أول الامر ما يعنيان ونظر اليهما نظرات فيها مزيج من الدهشة والاستنكار والتساؤل .

قالا له :

ـ ان من يريد ان ينتقل الى هناك (واشارا بطرف اصبعهما الى الضفة الثانية) عليه أن ينزل الى النهر فيقطعه سباحة .

اجابهما وكأنه وجد اخيرا حجة قاطعة ومبررا لعمله :

ـ ولكنني لا أجيد السباحة .

نظر احدهما الى الآخر ثم التفتا اليه وقالا له :

ـ لا بأس ، انما نحن هنا لهذا السبب ، فباستطاعتنا ان

نغوص معك فنجعلك تجتاز بصحبتنا نهر النسيان هذا .

ابتسم لهذا الحل ولم يجد فيه ضيرا ، وقبل أن يفتح فمه ليعلن موافقته ، قفز الى لسانه هذا السؤال :

ـ ماذا تقصدان بنهر النسيان ؟

ضحك الجنديان ثم قالا له :

ـ االنت على استعداد للعبور ؟

نظر اليهما في فزع ، وصرخ بشيء من العصبية :

ـ انبئاني اولا ما معنى نهر النسيان ؟

قال الجنديان :

ـ اعلم اذا ان كل من يريد الوصول الى هناك عليه ان يغوص ويستحم قبل كل شيء في نهر النسيان هذا .

فسال في دهشة :

ـ ولماذا ؟

قال الجنديان بمكر :

ـ تلك أصول اللعبة . لم نضع نحن اصولها ولا ندري تفسيرا لها ، انما نحن موكلان بتنفيذها .

بدت الحيرة عليه فسالهما :

ـ ولكن لماذا ينسى ، وماذا عسى أن ينسى ؟

فاجاباه فورا :

ـ كل شيء ، وهذه اصول اللعبة !

وبدا انه ، للمرة الثانية ، لم يفهم حرفا . قال الجنديان وقد نفذ صبرهما :

ـ عليك أن تقرر ، وينبغي ان يتم ذلك بسرعة .

قال :

ـ وماذا ينسى ؟

نفض الجنديان ايديهما الواحدة بالاخرى وقالا :

ـ ينسى ماضيه كله مثلا ، ينسى حياته ، ينسى الشقاء والعذاب والألم والفقر وما اشبه ذلك ...

هز راسه اول الامر في شيء من الفرح . حسن ان ينسى المرء دفعة واحدة كل هذه المصائب المتراكمة . ولكنه سرعان ما استدرك وقال :

ـ ولكنه سينسى ايضا افراحه ومباهجه ولحظات سعادته !

فهز الجنديان راسهما موافقين .

لبث حائرا ثم قال :

ـ اما من حل ثالث ؟ !

ـ لا وجود للحل الثالث في اصول اللعبة .

واشارا اليه اشارة الاسراع كانهما يتعجلانه .

قال في نفسه : « كيف أجرؤ على ان اضيع في لحظات قصار اجمل ما جمعت في حياتي واثمن ما تكوّنت منه لحمة وجودي . وكيف يريد هذان الجنديان أن انسى سعادتي وافراحي وآلامي واحزاني وكل ما اعطى حياتي معناها فافرغ ذاتي من محتواها ؟

هل يستطيع الانسان ان يتخلى عن ذاته بمثل هذا اليسر وهذه السرعة ؟ !»

قـال :

ـ واذا رفضت النسيان ، ورغبت عن الاستحمام في مياه النهر؟

قالا لـه :

ـ ذاك شأنك ، فانت اردت المجيء ، ولم ندعك نحن !

ـ وما العمل في مثل هذه الحال ؟

ـ الامر في غاية اليسر : تعود من حيث اتيت تعاني الألم والشقاء والعذاب والتعاسة في بلدتك .

استدار في تصميم موليا النهر ظهره . وسمع وهو في طريق العودة صوت تحطم اللوح الخشبي وتناثره شظايا في كل اتجاه .

أحزان بعد الظهيرة

كانا الى جواره يتحدثان بينما السيارة الصغيرة تسرع في مشيتها على طول الطريق . والطريق طويلة مملة ، ولقد صار يعرفها معرفة تامة لكثرة ما قطعها ذهابا وايابا ، منذ زمن بعيد ، فهي الطريق الوحيدة التي تصل بلدته الصغيرة بالعاصمة .

قال أحدهما لرفيقه وهو يشير بيده الى الاراضي الشاسعة التي بدت لهما من السيارة :

ـ انظر ! لم ينم العشب ، وظلت عيدان القمح فارغة .

فأجابه صديقه :

ـ هذا طبيعي ، فالمطر لم يتساقط هذا العام ، وكانت الشمس

طوال الشتاء حادة حامية . ان آثار الجفاف ظاهرة تصرخ .

التفت الى الرجلين الجالسين الى جانبه يمعن النظر اليهما ، وبدءا له مجهولين ، وقدّر انهما يعملان في زراعة الارض . وحاول ان يصرف تفكيره عنهما فتركهما لما كانا فيه من حديث يلتقط كلمة او كلمتين منه بين حين وآخر .

لن تنتهي هذه الرحلة الا بعد ساعات وعليه أن يصبر نفسه ، فهو مكره على ذلك .

وعاد بذاكرته الى ما قبل اسبوع ، يوم تلقى كتابا عاجلا من وزارته تدعوه فيه الى المجيء الى العاصمة للقيام بمهمة ، انه ليذكر الآن ذاك اليوم ، فقد سارع آنذاك الى تهيئة حقيبته ، وحجز مكانا في السيارة ، ولم يشعر بأي انقباض لمغادرته بلدته واسرته ، اذ وجد في هذه السفرة القصيرة متنفسا له من جو الكآبة والرتابة الذي يحيط به من الصباح الباكر الى أن يأوي الى فراشه ، كما زيّن له هذه السفرة انقطاعه الطويل عن المدينة التي عرفها منذ سنوات طويلة واحبها وعاش فيها اياما كانت حافلة بلحظات سعيدة ، لم يتذوق ما يماثلها منذ عاد ليباشر عمله في بلدته الصغيرة النائية ، تطحنه رحى الحياة ببطئها وثقلها ودورانها الرتيب الذي ينخّر منه العظام ويذر على رأسه البياض .

وفي العاصمة انصرف الى العمل الذي اوكل اليه القيام به ، فغرق في دوامته يوما بعد يوم . وكان قد قدّر أن المهمة التي سيكلف بها لن تستغرق اكثر من يوم او يومين فاذا هي تمتد الى اكثر من اسبوع ، كما قدر أن العمل سيكون قبل الظهر فاذا هو يمتد الى ساعة متاخرة من الليل . واستسلم للعمل ، برفقة بعض من زملائه القدامى ممن كانوا يقيمون في العاصمة او من استدعوا من مدنهم ليشاركوا في المهمة ذاتها . ومضت ايام الاسبوع تلك شاقة بطيئة تجرر اقدامها .

خاطبه أحد الرجلين ، قال له :

ـ ما بك ؟ اانت نائم ؟

ـ لا لست نائما ، ومن يستطيع ان ينام في مثل هذه السيارة التي تعترضها الحفر طوال الطريق فتقفز مذعورة ؟

قال له الرجل الآخر :

ـ أترى أثر الجفاف في الاراضي التي نقطعها ؟

فهز رأسه ، وعاد الرجلان الى متابعة حديثهما الذي لا نهايةله.

تساءل في قرارة نفسه : « ما الذي جعلك تقبل دعوتها ؟ » ولم يستطع أن يجد جوابا لهذا السؤال .

قـــال :

ـ ربما لانني كنت اعتقد ان النار قد انطفأت في نفسي بعد مرور هذه الاعوام كلها ، أو ربما لانني كنت ابحث في الاعماق عن شيء ماض مجهول ، لا أتبينه .

« لماذا ذهبت الى منزلها أيها الغريب ، بعد ان خمدت العاطفة وتحول القلب الى أطلال » .

كان منصرفا من عمله في ذلك اليوم ، وكان ، مع رفقائه ، قد انجزوا معظم ما كان عليهم أن ينجزوه ، واوشك العمل ان ينتهي ، فارجؤوا ختامه الى صباح اليوم التالي ، وعلى هذا النحو سيتاح له أن يتناول طعام الغداء ويستريح طويلا بعد الظهر ، اذ كان يشعر بحاجة الى الراحة والنوم .

من بعيد رآها وهو في طريقه الى المطعم ، وما أسرع ما تعرفها ، انها ما تزال كما عرفها من قبل ، منذ سنوات عديدة جدا ، كانت

تسير وحدها في الطرف الآخر من الطريق ، وحار ماذا يفعل . ايتجاهلها ، ام يمضي اليها مسلما ، اتتعرفه ام تتجاهله ؟ في ثانية واحدة ومضت كل هذه الخواطر في ذهنه ، وآثر ان يتابع طريقه دون ان يختار تصرفا محددا ، وحين قصرت المسافة بينهما لمحها تشير اليه وتناديه ، وهي واقفة على الطوار الآخر ، فقطع الشارع الصغير مرغما نفسه على السير بتؤدة . ووقف يسلم عليها .

ضغط سائق السيارة مفتاح المذياع فانبعث صوت حاد عال وانطلقت اغنية تجلجل في جو السيارة ، فأصغى اليها مكرها . وصمت الرجلان اللذين كانا بجواره ثم ردد واحد منهما جملة من الأغنية ، واحتمى كل من الركاب بصمته .

كان الحديث الذي دار بينهما تافها باردا ، ومع ذلك فقد كانت عيناها تلتمعان ببريق يعرفه فيهما . ولم يتوقفا الا دقائق قليلة ، قال لها بعدها :

ــ فرصة طيبة ، سأمضي الى هذا المطعم القريب .

والتفتت تنظر الى حيث أشار ، ثم قالت له :

ــ وانا ايضا اريد ان اصل الى المنزل بسرعة .

وتريثت هنيهة صامتة ثم اضافت :

ــ الا تستطيع ان تزورنا في المنزل ؟

دهش لهذه الدعوة المفاجئة . قال لها :

ــ لا ادري هل يتيح لي عملي شيئا من فراغ .

واستدرك يقول :

ــ هل ترين في ذلك فائدة ما ؟

فابتسمت ابتسامة شاحبة وقالت :

ــ أجــل ، سأريك منزلي واعرفك على زوجي واســرتي ، ونتحدث قليلا .

قال لها :

ــ سأسعى أن آتي ، هذا ان لم اسافر . فالعمل قد انتهى فيما يبدو .

قالت له بصوتها القديم الذي يعرفه بين آلاف الأصوات :

ــ حسن ، لن اخرج اليوم من المنزل ، وستجدني حين يخطر لك أن تمر بنا . وحددت له موقع منزلها وسمت له الشارع وسألته:

ــ هل عرفت المكان بدقة ؟

قال : نعم .

واتجه توا الى المطعم الذي كان على بعد خطوات منه .

لم يعد يتبين كلام الاغنية بعد أن عاد الرجلان الى متابعــة حديثهما عن الجفاف . ولكم تمنى ان يصمتا ، وان يصمت هــذا المذياع اللعين . انى لك الصمت وانت تعيش في العالم ، عــد الى قوقعتك واحتم بها .

اكب على الطعام يأكله دونما شهيئة . كان كمن يأكل في نومه . ولم يشعر بالوقت يمر . وحين خرج من المطعم قاصدا الفندق كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر . تمدد في غرفته في الفندق على أصوات شتى من الضجيج والصياح وحاول ان يغفو .

ليس يدري لماذا آثر ان يعود الى بلدته بالطائرة وهو يعلم أن ليس فيها مطار او خط جوي . ومع ذلك فقد قالوا له في الشركة

ان الطائرة ستهبط في الارض الترابية الحمراء حول البلدة قبل أن تتابع رحلتها ، فالهبوط في تلك الارض ممكن ، وستقله سيارة خاصة الى منزله ، وبهذا يختصر الوقت ويتخلص من مشاق السفر ، فقبل . وانطلق في الصباح الباكر فصعد الى الطائرة ، ولم يكن المسافرون قد وصلوا بعد . شدَّ الحزام حول خصره بمشقة ، ولم ير ربان الطائرة او المضيفة ، ومع ذلك فقد اخذت الطائرة تتحرك ثم انطلقت على باحة المطار وصعَدت تدريجيا في الجو ، فراى المباني تصغر وتصغر ، والسيارات الكبيرة تتحول الى قطع من اللعب الصغيرة تتحرك فوق الشوارع الضيقة . وبعد لحظات قصار دوّى جرس الاطفاء فاشتعلت النيران في الطائرة . ووجد نفسه ملقى على ارض خضراء وحيدا لا يستطيع ان يتحرك او يمشي . وسمع الطبيب والمرضة يتحدثان عنه . قال الطبيبه : أوعزي اليهم أن يدفنوا هذا الميت واراد ان يحتج ، ان يقول انه لم يمت ، انه ما يزال يسمع ، ولكن صوته خانه . ولم يشعر متى اخذوه ولا كيف حملوه ، وبذل اقصى جهده ليدق على الخشب المحيط به ، وانطلق يكرر المحاولة حتى تمكن من ان يدق على الخشب بقسوة وعنف ، ولسانه لا يقوى على الكلام وشفتاه لا تنفرجان عن صرخة . واستمر يقرع ويقرع . وتكرر القرع ففتح عينيه ، كان خادم الفندق بالباب ، قال له :

ـ هناك مخابرة لك .

ففرك عينيه ونظر الى ساعته كانت قد تجاوزت الخامسة . واخبره احد زملائه ، على الهاتف ، انهم مدعوون الى مقابلة المسؤولين في السابعة مساء . سارع الى ارتداء سترته ومضى . .

« فيم ذهابك ، وما الفائدة منه ؟ ما الغاية من رؤية الاطلال وزيارة المتاحف ، وعلام اثارة الشجن ؟ هل تستطيع ان تعيد الاناء المهشم الى سابق عهده ، وهل تستطيع الشجرة التي تحطمت

واجتثت جذورها وتحوئلت الى قطع من الحطب ان تعود فتورق اليوم ؟ » .

قال الرجل لجاره :

ـ اما هنا فالجفاف يبلغ اوجه ، اترى الارض انها تكاد تحترق وتستحيل جمرا .

تدخّل في حديثهما فقال :

ـ لو انكما ذهبتما الى المتحف لوجدتما جفافا اقسى واشد .

فلم يفهما ما يقول .

نزل من السيارة فواجهه المنزل وامتدت اصبعه ، بعد ان صعد السلم بخفة ، تلتمس موقع الجرس .

ـ هذا هو منزلي !

وحين جلس على الاريكة قالت له :

ـ اما زوجي فقد كلفني ان انقل اليك اعتذاره ، فقد دعي على عجل الى اجتماع خاص مع عدد من التجار .

وجلس صامتا مطرقا يتأمل ما حوله .

فاجأته وهي تقول له :

ـ وانت ايضا تزوجت .

قال لها :

ـ اجل ، لم أكن أملك ان افعل غير ما فعلت .

ـ وهل رزقت أولادا ؟

رفع راسه يداري غصة لا يعرف كيف استحوذت عليه :

ـ كلا ، فامراتي عقيم !

ـ كم وددت ان ارى زوجتك .

ثم اضافت في شيء من الخجل والارتباك :

ـ وهل تحبك ؟

تردد قليلا ثم قال :

ـ انها لا تعرف الحب ، هي امراة طيبة القلب وديعة مخلصة رقيقة ، وانا احترمها كثيرا .

ـ انت طيب منذ عرفتك .

ـ وانت ، كيف ترين زوجك ؟

ـ انت تعرف كل شيء فلماذا السؤال ؟ لقد كنا معا في السنة الاخيرة من دراستنا الجامعية حين تم الزواج ، وكنت على علم بكل التفاصيل ، اتراك نسيت ذلك ؟

ـ كلا ، لم انس شيئا .

سالها بلا مبالاة :

ـ اما يزال غنيا ؟

والتفت ينظر ، للمرة الاولى ، الى المنزل وما فيه .

قالت له :

ـ كل ما حولك يتحدث عن ذلك ، ولكن ...

ـ مـاذا ؟

ـ لا تتجاهل ! انت تعرف انني ما احببته قط . ان له قلبا اصم كالجدار ، وانني ما اردت الزواج منه ، ففيم العودة الى الماضي؟

اطل ولداها من غرفتهما فنادتهما :

ـ تعالا سلما على صديق لنا قديم .

فاقترب الصبي وهربت البنت الصغيرة ، صافح ابنها فاحس بيد ضخمة في قبضة يده ولم يلبث ان انصرف .

قالت له :

ـ هذا هو البكر وانه لكسول بليد ، اما الفتاة فلطيفة ذكية .

وداری ضحكة كادت تنبعث من فمه .

ـ اعرف ما دار بخلدك ، انه يشبه اباه اليس كذلك ؟

قال لها : ولكنني لم اعرف اباه .

نادت الخادمة وطلبت اليها أن تعد لهما فنجانين من القهوة ، واضافت دون أن تسأله :

ـ قهوة مرة . انك كنت تحب القهوة مرة ، اما تزال تؤثرها كذلك ؟

هز رأسه .

ينبعث الماضي فجأة ، ينبعث الماضي السعيد على كلمة من كلماتها ومن نبرة من نبرات صوتها . لقد كان طردك من الفردوس يسيرا سهلا ايها الشاب . والأحلام التي بنيت وانت على مقعد الدراسة انهارت وذهبت بددا ، ولحظات السعادة القصيرة ذهبت في مهب الرياح . والايام الماضيات البعيدات اين هي ؟ ساعات الانتظار العذبة ، والمخابرات الهاتفية ، والصوت الانساني الذي

يمر من الاذن ليستقر في القلب . اين سكرات المشي في ممرات الجامعة ، اوقف الزمن ، عد به الى الوراء ، حارب الهواء واطعن الغيوم فلن تنبجس الدماء الا من قلبك ، الدماء ؟ لن تجد في قلبك الا الصديد ، ولن تجد في عينيك الا دموعا تأبى الانفلات .

قال لها :

ـ لقد خطر لي امس ان امضي فاتناول الغداء في المطعم الذي كنا نذهب اليه معا .

ـ الله ! اما يزال قائما ؟

ـ نعم ، وجلست حيث كنا نجلس ، المائدة نفسها ، والخدم انفسهم لم يتغيروا ، وصاحب المطعم النحيل ما يزال في مكانه . لم يتغير في المطعم شيء ، وتغير كل شيء . كانت جلستنا تمتد ساعات وساعات ، اتذكرين ؟ ونحن نتحادث دقائق ، لنصمت زمنا اطول ، والناس يدخلون ويخرجون ، والخدم يذهبون ويجيئون ونحن في مكاننا لا نتحرك ، كنا نملك القدرة على ان نعطل الزمان .

وشرب فنجان القهوة !

ـ لقد صحوت الآن . انني مرهق جدا من العمل ومن قلة النوم .

قالت تستفسر :

ـ ارى انك شاحب الوجه ، لماذا لا تنام ؟

ـ لم اذق النوم في الفندق طوال اليومين الماضيين .

ـ ولماذا ؟

ـ بجوار الفندق امراة تتالم ، يبدو ان ولادتها قد تعسرت فهي تصيح وتصرخ طوال الليل .

ـ وماذا حدث لها من بعد ؟

ـ لا ادري . ولكنني سمعت الناس يعولون ويبكون ، لعلها ماتت هي وجنينها . نظر الى ساعته فوجد ان موعد الاجتماع قد ازف . قالت له :

ـ اما تزال تحتفظ بهذه الساعة ؟

فاطرق مبتسما .

قال الرجل الذي بجانبه لصديقه :

ـ لو كانت مياه النهر تصل الى تلك البقعة لأعشبت واخضرت.

فضحك صديقه واجابه :

ـ ولكن النهر لا يصعد الى الاعلى .

وسرا بهذه النكتة فراحا يقهقهان .

قم فودّع زميلتك القديمة ، فقد حان وقت الاجتماع ، مالك وكرونوس الآن ؟

قال لها :

ـ اتذكرين اسطورة كرونوس التي قراتها لك ذات يوم ؟

اجابته في هدوء :

ـ اذكر كل شيء قلته لي ، ولكنني لم انتفع بأي شيء مما قرات او سمعت . لم يكن لدراستي اي جنى .

ـ كان كرونوس اله الزمان عند الافريق ياكل ابناءه .

فقاطعته :

ـ اترانا نشعر بوقع اضراسه في اجسامنا ؟

ـ في بعض الاحيان .

قال السائق بصوت عال :

ـ لقد تعطل الدولاب وسنصل الى البلدة متاخرين بعض الشيء ، ونزل لاصلاحه .

وصل الى مقر الاجتماع متأخرا . كان كل رفقائه هناك جالسين الى طاولة كبيرة واسعة .

وكان المسؤول الكبير يتابع كلامه :

ـ اما الاعمال التي قمتم بها فسنحتفظ بها في اضبارات الوزارة مرجئين النظر فيها الآن ، فقد جدت امور طارئة جعلتنا نغيّر خطتنا التي دفعتنا الى دعوتكم ، وسنتخذ خطة جديدة ، اشكركم على كل حال فلقد قمتم بالعمل على خير وجه .

قال يسأل زميله الجالس بجانبه :

ـ هل يعني ذلك أن كل ما قمنا به لا نفع فيه .

ـ هكذا يبدو .

واضاف المسؤول :

ـ سيعود الغرباء منكم الى مقر عملهم في اقرب وقته . وسنستدعيكم حين نجد حاجة الى ذلك .

وقام يصافحهم مودعا شاكرا ، فانصرفوا .

قال السائق وهو يخفف من سرعة سيارته قبل ان يتوقف في مرآب البلدة بعد أن انتهى الى الشارع الرئيسي :

ـ الحمد لله على السلامة !!

١٩٦٩

سلطان الظلام

لم يشأ في ذلك المساء ان يأوي في ساعة مبكرة الى غرفته الخاوية ، فقد كان يشعر بغم وحزن لم يتبين سببهما على وجه الدقة . وقدّر ان باعث ذلك قد يكون مرده الى موقفه من مديره أو موقف مديره منه . فلقد هاجم الادارة التي يعمل فيها هجوما عنيفا اثار دهشة رفقائه واثار عجبه هو . ولحظ الازورار والخوف في عيون أصدقائه واحسّ بملامتهم تفيض من وجوههم . وفكر في نفسه قال : « كيف واتتني الجراة على ذلك ، انا الذي لم اقف طوال حياتي هذا الموقف » وسرعان ما استدرك انه كان مخلصا في نقده وهجومه ، وان اصدقاءه كانوا جبناء في مواجهة الحقيقة فقد دبت الفوضى في المديرية التي يعمل فيها وحظّر المدير على موظفيه الكلام ، فرأى أن في ذلك افسادا للعمل ودمارا للمدينة التي يحبها .

وبسبب شعوره ذاك مضى يجوب الشوارع يتأمل واجهات المخازن التي بدا معظمها مغلقا ، الا ان اصحابها تركوا الواجهات مضاءة واقفلوا الابواب واسدلوا ستارا من الحديد امام الواجهات لا يمنع المتفرّج من رؤية ما في داخلها .

ومضى على تجواله زمن لا يستطيع أن يقدره ، ثم خطر له أن يمر بمنزل بعض أصدقائه فيسهر عندهم فترة من الليل قبل أن يعود الى غرفته ، وشجعه على ذلك ان يوم الغد عطلة ، وأن رفقاءه من الموظفين لا يجدون بأسا في اطالة السهر عشية الاعياد والعطل فباستطاعتهم ان يأووا الى مضاجعهم حين يشاؤون ، وان يستيقظوا في الصباح التالي حين يحلو لهم أن يستيقظوا .

الا ان بيوت رفقائه بعيدة عن هــذه الشوارع العامة المضاءة المزدانة حيث كان يتجول ، وكان عليه لكي يصل الى تلك البيوت القائمة في شوارع ضيقة وازقة مظلمة ، ان يقطع مسافات طويلة . كان قد بدأ يشعر بالتعب فلا بد له من أن يركب الباص ، الا انه مع ذلك آثر أن يسير على قدميه ، فما يراه من ازدحام في الباص جعله يتجنب ركوبه الا في حالة الحاجة القصوى .

مضى نحو تلك الشوارع الضيقة . وكان كلما أوغل في السير فيها ، اوغل الليل في نشر ظلامه على تلك الاحياء ، ولم يكن يضيء طريقه الا بصيص من نور ضئيل يتساقط ببخل من بعض المصابيح المتسخة المسمّرة في رؤوس اعمدة خشبية موغلة في العلو .

كان اصدقاؤه كثيرين ، الا انه لم يكن ليقصد صديقا بعينه ، حسبه ان يعثر على اي منهم فيسهر عنده ، وكان مما ييسر له ذلك ان بيوتهم متقاربة تكاد تكون متلاصقة في هذا الحي القديم .

وطرق احد الابواب ووقف ينتظر ، وطال انتظـاره فلم يفتح الباب ، فطرقه مرة اخرى ، ولما لم يفتح هذه المرة تحوّل عنه وسار

بضع خطوات ثم توقف عند باب صديق آخر . كانت الانوار تتسرب من بعض نوافذ الدار ، فأيقن ان صديقه هذا في البيت لا محالة ، ولكنه فوجىء ، حينما طرق الباب ، بصوت امراة يسأل من خلف البـــاب :

ـ مـــن ؟

قال بتلعثـــم :

ـ انا صديق زوجك . وقد جئت اقضي السهرة هذه الليلة معه.

ثم أضاف بعد قليل ، واذن المراة ، فيما قدّر ، ملتصقة بخشب البـــاب :

ـ هل هو في الدار ؟

اجابه الصوت العميق :

ـ كلا ، فقد ذهب الى السينما ولست أدري متى يعود !

بدأ ينتابه شيء من الضجر ونفاد الصبر ، الا أنه لم يجد بدا من متابعة الطريق . وسرعان ما صار الى منزل صديق ثالث . في هذه المرة لمح كذلك انوارا خافية تتسرب من الخصاص الخشبية ، فقال في نفسه : « عسى ان اجد في الدار أحدا اقضي معه السهرة ».

ولكنه ما ان طرق الباب ، ودوّى صوت المطرقة الحديدية على مسامير الدار وتردد صدى الطرقات في الليل الموحش الساكن حتى اطفئت الانوار وساد صمت كصمت القبور . وانتظر لحظات طويلة ان يفتح الباب أو يسأله سائل من الطارق ، الا ان الباب لم يصر وخشبه لم يسمح لأي صوت انساني بالنفاذ منه ، وظل واقفـا مذهولا امام الصمت المطبق الذي يرين على الباب وما خلف الباب وعلى الشارع باكمله .

همّ بأن يستدير ويعود ادراجه ليستقبل غرفته الباردة ، ولكن طرفه رنا الى الباب المواجه لهذا الباب ، وقال : « فلنحاول للمرة الاخيرة ! » .

طرق الباب وهو مصمم على العودة ان لم يجد احدا وقد بلغ به الضيق والالم حدا لم يعد بقادر على تحمله .

واخيرا ، فتح الباب من تلقاء نفسه ، لا سؤال ولا صرير ولا جلبة. ولكن الغريب في الأمر ان الباب انفتح الى الخارج ، على خلاف العادة ، وكاد يرتطم به ، وفي اسرع من خطف البرق وجد نفسه وجها لوجه امام جدار املس لا يدري كيف نبت امامه فسدّ عليه مدخل الدار ، ومدّ يده يتلمّس ما امامه فاصطدمت يده بحجارة ملساء قوية فحار ولم يدر ماذا يفعل . لم يكن هناك من امل اذاً . وقال : « ساعود بسرعة الى المنزل ، فقد اتعبني المشي ، وانقضى هزيع طويل من الليل ، ولا بد لي من الرجوع الى غرفتي » ..

ترك الباب المفتوح والجدار الأملس امامه ، وسار في شيء من السرعة في طريق ضيق سيفضي به الى طريق آخر متعرّج ، وأما قطع هذا الطريق وما بعده من طرقات فسيصل الى الشارع العام ، ومنه سيسلك دربا تفضي به الى غرفته الباردة . ومضى بخطا حثيثة لا يلوي على شيء .

كان يسير مسرعا حين دوت في اذنيه صفارة الحارس الليلي ، فانقبض صدره الا انه لم يعرها اهتمامه ، فما اكثر ما سمع صوت هذه الصفارات ينطلق في الليل حين يكون عائدا الى منزله بعد سهرة طويلة . ولكنه حين سمع صوت الصفارة للمرة الثانية وجد نفسه مسوقا بحركة لا ارادية الى ان يلتفت الى الخلف ، ورأى عن كثب الحارس واقفا في ناصية الشارع بينما كان الشارع خاليا مقفرا . وتساءل في نفسه « لماذا يطلق الحارس صفارته هذه ؟ »

خطا الحارس بضع خطوات فتسمر في مكانه ، ماذا يريد مني هذا الحارس ؟ أيظنني لصا ؟

الا أن الحارس تقدم منه في لطف بالغ وتقدير عظيم ، وقال له :

ــ لقد اخطأت الطريق !

وحار في كلام الحارس . من أين يعرفه ، وكيف يعرف انه اخطأ الطريق ، وأي طريق يقصد ؟

كرر الحارس قوله بنبرة لطيفة مهذبة ناعمة :

ــ لقد أخطأت الطريق !

ثم اشار بيده نحو منعطف جانبي وقال له :

ــ من هنا ! لا من هناك !

اعترته دهشة ممزوجة بالتمرد ، فقال فيما يشبه الصياح :

ــ ولكن هل تعرفني أنت ؟ وتعرف وجهتي ؟ ؟

صمت الحارس لحظة ثم هز راسه بكل ادب وقال :

ــ أجل من هنا ! لا من هناك ، فهم في انتظارك ، وما عليك الا ان تسير في خط مستقيم فتصل في أسرع وقت .

قال الحارس هذا ، ثم ادار له ظهره وسار في الدروب المعتمة.

فكر في نفسه : « من هنا اذا » واضاف : « واي ضير في ذلك ؟ ان هذه الدرب كغيرها تفضي الى الشارع العام ، كل ما في الامر ان المسافةستطول بعضالشيء ، فالدروب في النهاية تؤديالىمنزلي» .

وهكذا وجد نفسه يسير حيث أومأ اليه الحارس الليلي . كان كل شيء ساكنا والظلمة تكاد تسود المكان . فسمع هديرا لم

يتبينه اول الامر فلم يعره اهمية ، ولم يلبث هذا الهدير ان اشتد تدريجيا ، كان يقوى ويعنف كلما اوغل في الـدروب الضيقـة . وزكمت انفه رائحة لا عهد له بها واستنشق الهواء مرة ومرة فدهش من رائحة غريبة فيه ما اشبهها برائحة البحر ، وافتر فمـه عن ابتسامة ، اين هو من البحر ؟ ومدينته داخلية لا نهر فيها ولا بحر ، وجزم بلا تردد انه مخطىء في احساسه هذا ولكن ما بال صوت الهدير يعلو اذنيه ، اتخدعه اذناه ايضا ؟ الا ان ما حيره حقا هو اللزوجة التي شعر بها ، فقد اخذ يتصبب منه عرق غزير كما لو كان بجانب البحر في ليلة قائظة ، وحين استدار ليخطو آخـر خطوة في هذا الدرب الضيق ابتدره رجلان كأنما كانا ينتظران مقدمه قالا له :

ــ ها قد وصلت ! لقد احسنت بمجيئك ، فقد ارسل في طلبك حيث تقيم ، وحتى الآن لم يعد الرسول الذي كلف بهذه المهمة . لقد احسنت بالمجيء .

فغر فمه مدهوشا ، وندت عنه صرخة حاول ان يكتمها :

ــ ولكن الى اين المجيء ، انني لا افهم حرفا !

قالا له :

ــ تعال معنا وستفهم كل شيء .

ــ ولكنني لا اعرفكما ولم اركما قبل الآن .

ــ ونحن كذلك لا نعرفك ولم نرك قط ، ولكن لا اهمية لذلك كلـه .

ــ واذا ؟

ــ ستمضي معنا نحو رئيسنا ، فهو الذي كلفنا باصطحابك اليه متى حضرت ، وهناك ستفهم كل شيء .

وقبل ان ينطق باية كلمة امسك واحد منهما بيده برفق وسار بينهما ..

لاح له البحر من بعيد ، كان بحرا كبيرا ازرق اللون غامق الزرقة ، والتمعت في الافق البعيد اضواء بعض البواخر الصغيرة الراسية في المدى البعيد ، فلم يجرؤ على طرح سؤال يتعلق بهذا البحر ، ولكنه سرّ ان حواسه لم تكن مخطئة فما سمعه من هدير ، وما أحس به من عرق وما زكم انفه من رائحة كان شيئا حقيقيا ، وكان يحب البحر ، فهدأت اعصابه الثائرة ، والتمعت بعض النجوم في السماء ، فنظر اليها في كثير من البهجة كانه يراها للمرة الاولى .

وساروا مدة طويلة حتى انتهوا الى باب مبنى يشبه الى حد بعيد قلعة من قلاع القرون الوسطى ، دخل الرجال الثلاثة بهوا معتما وساروا في ممرات طويلة صامتين كأنهم يسيرون في مأتم . نظر حوله فلم يشاهد الا جدرانا ذات صخور قديمة ، ووصلوا اخيرا الى باب يتسرب منه ضوء حاد . طرق الرجلان الباب ، وانتظرا لحظة ان يسمح لهما بالدخول ، ولما سمعا صوتا ، فتحا الباب ودفعا به الى الداخل ، وبقيا في الخارج .

كان أول ما رآه وجه موظف يبتسم ببشاشة قال له :

ـ انني ارحب بك .

قال في شيء من النزق :

ـ انني لا افهم شيئا ، ولا ادري داعيا للترحيب بي ، فانا اريد ان أعود الى منزلي ، الى غرفتي . لم يجبه بشيء ، بل اخرج علبة السكائر ، وقدم له لفافة ، ثم اشعلها له . وقال فيمنتهىالهدوء:

ـ لقد نقل بيتك الى هذا المكان .

ثم اشار بيده الى الشرق وقال له :
ـ ستجد هنالك غرفتك وكل ما فيها من ثياب واشياء ، وستجد كذلك كتبك ومذياعك واسطواناتك وآلة التسجيل ، وكل ما تحتاج اليه ، وستوصي على ما تشاء من الطعام والشراب فيأتونك به في الوقت الذي تريد .

ظل صامتا كما لو كان يصغي الى حديث شيق ، ثم قال مستفسرا :

ـ وعملي ؟

اجابه بصوت قاطع :
ـ لقد اصبحت في حل منه بعد الليلة .

وهمّ ان يسال ، ودارت في ذهنه عشرات الخواطر ، وقال في نفسه : لماذا ، وما الغاية من ذلك كله ؟ ولكنه لم يجرؤ على السؤال فقد صدر في ذلك الحين صوت حاد انتزعه من خواطره انتزاعا . كان صوتا قاسيا هو مزيج من الانين والحشرجة والعواء والنباح ؛ لم يسمع مثله قط . وارتسمت على وجهه قشعريرة وانبعث منه السؤال رغم تجهم وجه الموظف :

ـ ما هذا ؟

قهقه الموظف وهو يهز كتفيه :
ـ لا اهمية لهذا ، فنحن قريبون من المعمل .

ـ واي معمل هذا ، انني اعرف البلد شبرا شبرا ولست اعرف ان ههنا معملا .

اقترب منه الرجل محاولا ان يسري عنه ، قال له :

ـ لا ترع ! فهذا معمل انشيء حديثا في هذه المنطقة قرب

البحر ، وغاية هذا المعمل انتاج جلود الحيوانات ، انهم يحضرون الحيوانات حية او ميتة اليه ، ثم اشار بيده اشارة ذات مغزى ، ويسلخونها بآلة حديثة صنعت في احدث المصانع ، ويدخلون الحيوان من احد طرفيها ، وسرعان ما تقوم الآلة بالتحلق التام حول جسمه، فتفصل جلده عن لحمه وعظامه ، وتقطع راسه ، وتلقي به بسرعة

فائقة في مياه البحر ، ولهذا السبب فانك تسمع بين حين وآخر صوتا صفيرا ينبعث من هناك ، هو صوت الحيوان عندما يفصل راسه عن جسمه ، وهذا الصوت لا يدوم اكثر من نصف ثانية .

قال لـه :

ـ وسابقى هنا اسمع الاصوات ليل نهار ؟

اجابـه :

ـ ذاك خير من ان تعمل في المديرية المشؤومة ، اليس كذلك ؟

قال الرجل في اصرار :

ـ بل أريد ان اعود الى عملي وبيتي الخاوي .

وهز الموظف راسه في حسرة ويأس .

قال الرجل :

ولكن كيف ترغمني على ذلك ؟ ومن دفعك اليه ؟

قال الموظف :

ـ الحقيقة انني موظف انفذ ما طلب الي تنفيذه ، وقد أمرني رئيسي بذلك وعلي ان اقوم بما أمرت به .

قال في لهجة غاضبة عصبية :

ـ اذا فسأقابل رئيسك .

ـ ولكن رئيسي انما يخضع لمديره .

ـ اقابل المدير اذآ وأرفض الانتقال الى هذا المكان .

قال له الموظف :

ـ ليس في اليد حيلة ، فالمدير ينفذ اوامر رئيسه .

ـ فلأذهب الى الرئيس اذا !

ـ وهذا ينفذ اوامر مديره المباشر !

ـ ليس علي اذن الا ان أحتج لدى المدير المباشر ذاك .

ـ وهذا بدوره انما يخضع لاوامر رئيسه .

ـ ومن رئيس هذا ؟

ـ المـدير .

ـ ومن يصدر الاوامر الى المدير ؟

ـ رئيسه طبعا .

اهوى الرجل بقبضته على راسه فهرع الموظف للإمساك بـه وراح يسري عنه :

ـ لا تبتئس ، ستسعد هنا ولا شك في ذلك وستستريح من عناء العمل الى الابد . بحث الموظف عن الجرس . وسرعان ما ضغط عليه بتؤدة ، دخل جنديان طويلا القامة فاشار اليهما الموظف اشارة خاطفة فاديا له التحية وقال لهما :

ـ خذاه بحذر الى غرفته فان اعصابه مرهقة .

واقتاده الجنديان الى غرفته سالكين ممرات طويلة وحين وصلا الى الغرفة كانت قدماه قد تخدرتا من التعب ، فألقيا به على سريره وعادا من حيث اتيا .